عرين الجسد

رواية

رجب الطيب

إليها بطلة النص, صاحبة الحكاية, فأنا لم أكن إلا راويا أو ساردا, نقلت إلى الخيال ما فعلته هي في الواقع !

حين يجتمع الفقر والجهل والتخلف, يضيع الحب وتبدأ المعاناة .

الفصل الأول

القدس

_ 1 _

تم كل شيء بسرعة, فما أن قاما بتوقيع العقد أمام القاضي الشرعي, هي بوجود أبيها وكيلها وولي أمرها وهو بصفته ولي أمر نفسه, حتى توالت الإجراءات, التحضير للسفر وبنفس الوقت الإعداد للزفاف .

كان الأمر بالنسبة لها أشبه بالتحضير ليوم العيد الذي كانت تنتظره بفارغ الصبر, ففيه تجمع نقودا وفيرة تشتري بها كل ما تشتهيه من آيس كريم وشيكولاتة وإكسسوارات وبعض الماكياج, هذه المرة, ستغادر المدينة التي ولدت فيها إلى بلاد بعيدة مع رجل سيكون زوجها, سيوفر لها كل ما ترغب فيه وتشتهيه, من سفر وملابس ومتعة.

لم يطل انتظارها للحظة معاشرة الرجل, فهي بالكاد في سن الثامنة عشرة, وهي رغبت بهذا وأهلها أيضا, لم تحب المدرسة يوما ولا تطلعت لأن تحصل على شهادة جامعية, ولم تحلم لا في أن تكون طبيبة ولا مهندسة, أرادت أن تعيش الحب, أن تعيش مع الرجل وان تستمتع بالحياة فقط, كانت تفضل بالطبع لو أنها تزوجت من أول علاقة مراهقة عاشتها مع ابن الجيران, لكن جليل ما زال في السنة الجامعية الثالثة, وهو مثلها فقير, سيكون أمامه وقت ليكوّن نفسه ويوفر لها ما تحتاجه من لوازم الزواج, فلم تنتظر, وقد دقّ سمير بابها وهو رجل ثري وجاهز, وافقت أمها عليه دون تردد, ثم أقنعتها, ثم وافق أبوها على مضض .

جاء الرجل من بلاد الغرب ليتزوج من بنات بلده, أصيل والله يا عمي, هكذا قال له والدي حين لامس قلبه بقوله بأنه يريد أن يعمل بوصية أبيه الذي قال له, من طين بلادك لط ع خدادك, بنات أميركا يا عمي ما الهم أمان, إحنا ما بنتحمل الكلام الفاضي, الواحد صحيح يمكن يشرّق والّا يغرّب لكن لما بدّه يتجوز ويجيب أولاد لازم يكونوا من صلبه, ولازم يختار الخال لأولاده, مش الله اعلم, والزواج عرض, ما بيصير نتزوج غير من بنات بلادنا .

شعرت بأنها كما لو كانت ملكة أو أميرة, جمالها الأخّاذ يدفعها لأن تحس كما لو كانت تطير, كل من حولها يحتفي بها, لم تعد تلك الفتاة التي طالما نظرت إليها أمها كما لو كانت "حسن صبي", البنت قوية يا أبو نور الدين, لازم تشكمها, ما بيصير هيك مدللها طول الوقت, وهيها لا فالحة بمدرسة ولا مريحة لنا روسنا, البنات بتتوتوت عليها والنسوان بتلاسّن, البنت طالعة طلعة من الآخر وفايعة تقول وردة مفتحة, وما دامها لا بدها مدرسة ولا في بالها تعليم, نجوزها أحسن إلنا .

مش لما يجي العريس, هو لو أهل جليل بس يدوا كلمة, كان خلص بتحط البنت في بالها, وبنعرف راسنا من رجلينا, لكن ما صار أشي . ترد عليه أمي بالقول : من وين يا حسرة, ما

أنت عارف بيرهم وغطاه يا زلمة, الجماعة صحيح من توبنا وجيرة العمر, لكن ما بالأيد حيلة, هم يا دوب ليخلص الولد جامعته وبعد هيك بدبر حاله, وهم ناس بعرفوا الأصول, بعرفوا انه ما بيصير يشبكوا البنت ع الجهجهون .

_ 2 _

ما زالت صور ياسر عرفات معلقة في أكثر من مكان, في شوارع المدينة وبعض محلاتها, في دكان الشيخ عبد الله وفي بيتهم, صورة ياسر عرفات وهو يصافح اسحق رابين ومعهما بيل كلينتون في حديقة البيت الأبيض, وذلك رغم مرور نحو عامين على الحدث الذي اهتم به كل العالم, إلا هي, لم يعنها الأمر بشيء, لكنها كانت تستغرب من رؤية هذه الصور, التي صارت مع علم فلسطين تملأ المكان, رغم وجود جنود ورجال الأمن والشرطة الإسرائيلية, الذين هم نفسهم كانوا يطلقون النار على من يرفع العلم ذاته على أعمدة الكهرباء قبل عامين .

أخيرا حلّ السلام في مدينة السلام, والله ما في أحلى من السلام, هكذا كان يقول أبوها, تسمع صوت فيروز من بعيد يشدو من محل يبيع السماعات والإكسسوارات :

لأجلك يا مدينة الصلاة

أصلي

لأجلك يا بهية المساكن

يا زهرة المدائن

يا قدس يا مدينة الصلاة

هي لا تصلي, هي فقط تعيش بكل بساطة, ولدت فقيرة والفقر كافر, من يولد فقيرا سيظل يعيش حياته كلها, لا يعرف للحياة طعما إن استسلم لقدره, أو يعيش حياته كلها متمردا من أجل أن يعيش من يجيء بعده حياة أفضل .

لا يهمها أحد ولا شيء, سوى نشوى, لذا فأحلامها بسيطة وطموحاتها عادية جدا, كل عالمها رجل تبحث عنه في أكثر من شاب يخطب ودها, عبر الرسائل التي يكتبونها لها, ويعطوها إياها وهم خارجون من المدرسة, في طريق العودة للبيت هنا في شوارع وأزقة وحارات مدينة السلام الضيقة, لذا فان سلامها هي ما هو إلا حب خاص, مكتوب بورقة ملونة, بخط مرتعش على إيقاع نبض قلب عاشق .

_نشوى _

_ 1 _

أول ما طلّ مستر سمير, انشغلت كل البلد بالمليونير المهاجر الذي جاء ليتزوج بنت بلد, وما أن وقعت عينه علي حتى اتخذ قراره, يبدو أنه كان منذ البداية قد حدّد المواصفات وأنا جيت ع المقاس : طول 170 سم, سمراء بملامح خلاسية, ناعمة, 18 سنة, عذراء, حتى القلب لم ينفتح على حب رجل آخر, هكذا كان يظن, عروس تصغره بنحو خمسة عشر عاما, ما أن يضع بإصبعي خاتم الزواج حتى أصبح ملكه, وما أن يلبسني الثياب الفاخرة, حتى أكون أشبه بنجمة مجتمع أو حتى ممثلة سينما, مناسبة جدا لبرستيجه الاجتماعي, زوجة تليق برجل أعمال ناجح, تضع يدها في ذراعه وتذهب معه كلما دعي لحفلة اجتماعية, المشكلة تكمن في كوني بنت بلد, ما بأعرف كتير اتيكيت, مش مشكلة, سنة لغة وبنفس الوقت, البركة في عصام .

لم تصدق أمي أن مستر سمير قد جاء إلينا في منزلنا المتواضع, ليطلب يدي, بل كادت أن يغمى عليها حين قال وعرض بنفسه التفاصيل : المهر والشبكة وكل مصاريف العرس من الألف للمية ألف دولار, جاهز وأنا من ايدكو هاي لأيدكو هاي, طلباتك عمي أنا والحمد لله, الله منعم علي ومتفضل وكله من خير الله وخيركو .

اندلقت مني ضحكة أصابت كل من كان حاضرا بالدهشة, قال خيركو قال, من وين يا حسرة, سارعت أمي للإمساك بيدي, وضعت يدها على فمي وأخرجتني من الصالون, قبل أن يفلت مني التعليق الذي سقط على كل حال بعبي .

طلب منه أبي أن يمهله أسبوعا حتى يأخذ رأيي ويسأل عنه, وكما هي العادات والتقاليد, يخبر أقاربي, وبعد أسبوع يعود إلينا ليعطيه الرد, أستأذن الرجل وخرج, أما أبي فجاء إلى أمي يسألها : أيش رأيك أنت

لترد عليه بالقول : وهادي بدها راي, الزلمة جاهز, غني وعايش برة, كل بنات البلد تمنته أول ما وصل وعرفوا الناس انه جاي يتأهل, لكن حظ بنتنا ورضا الله علينا, خلاه يختارها .

قولي وغيري يا مرة, الزلمة كبير عليها, عمره قد عمرها مرتين, وباين عليه راكز وتقيل وهي أنت عارفة قديش شعنونة ومنطتة .

هي قلتها بعظمة لسانك شعنونة, يعني انو أحسن تاخد واحد مهوي متلها وألا واحد عاقل ورزين يعقلها .

طيب والسفر, ياخدها ويروح بعيد عنا, ما نعرف ايش يصير معها, أي والله لو عمل فيها اشي ما أحنا قادرين لا نصلها ولا نعمل لها اشي ولا أحنا طايلينه .

يا زلمة حدا صاح له, أي الناس بتدفع اللي فوقها واللي تحتها ليصح لها جنسية امركانية, أو يصح لها هجرة وتطلع من هاالكرب اللي إحنا فيه .

طيب والبنت ايش رأيها

هيها قدامك شوفها, اسألها, أي طايرة من الفرح ما هي مصدقة إنها راح تسافر وتعيش برة, ومع مين جوز غني والفلوس عنده متل الرز .

عاد الرجل بعد أسبوع, فاستقبله أبي وكان قد أخبر خالي وعمي وبعض أقاربنا, فكانوا في استقباله, وبعد أن شربوا القهوة افتتح أبي القول : شوف يا سيد سمير, أنت والله طلبت منا أغلى بنت عنا, والصحيح إنه تسافر وتبعد عنا, شغلة صعبة كتير, كمان هي لسة زغيرة, وبدها مين يدير باله عليها, لكن إحنا بنشتري زلمة, واللي بصون شرفنا وعرضنا هو منا وعلينا, فأهلا وسهلا فيك وبالنسبة للمهر والشبكة والمصاريف إحنا ما بناخد من فيد بنتنا قرش واحد, أنت جهزها وإحنا ما بدنا الكو إنت وهي غير تتوفقوا .

سارع رجل إلى القول : الفاتحة على نية التوفيق, وبعد نحو دقيقتين, نادى أبي أمي لتحضر الحلويات, فما كان منها إلا أن أطلقت زغرودة ثم حضنتني وقالت : مبروك يا بنتي, والله كبرت وصرت عروسة, مش هيك وبس وبدك تتركيني وتسافري, وما أن نطقت بهذه الكلمة حتى كانت دمعة عينها ترافقها .

مسحت دمعة أمي عن عينها, وقلت لها, إذا زواجي وسفري بزعلك بلا منه, أجابت على الفور, لا ايش بتحكي أنت, هاي دمعة الفرح يمة, ثم سارعت إلى المطبخ لتقوم بمناولة الشباب أطباق الكنافة النابلسية اللذيذة .

بعد قراءة الفاتحة حملت نشوى لقب مخطوبة, وصار الرجل الذي لا تعرفه, الذي جاء من بعيد على ظهر حصان معدني طائر, يحمل لقب خطيبها, وبين الخطبة والزفاف أيام معدودات, بالكاد كانت أسبوعا, نظراً إلى أن كل شيء قد تمّ على عجل, فالرجل استقطع من وقته الثمين الذي يصرفه كله للعمل, ولا يعمل كثيرا أو تماما بمقولة نبي الإسلام محمد (صلعم) _ إن لجسدك عليك حق_ أو حتى إن لقلبك عليك حق, أو لعقلك عليك حق, أو حتى لأهلك وبلدك عليك حق . كثرت عليك الحقوق واجبة الدفع يا صديقي, المهم أنه من الطبيعي ووفق العادة والتقليد أن يتم تجهيز العروس خلال فترة الخطبة, التي كانت تظن هي بأنها فترة التعارف في الشرق, في بلادنا بين رجل وفتاة ينويان أن يقترنا معا إلى الأبد . وما من طريقة أخرى للتعارف غير هذه, فكل حوار أو تواصل أو خلوة بين رجل وامرأة ما لم تكن "حلاله" هي حرام, حتى لو أنهما قد عقدا قرانهما شرعيا ورسميا عند القاضي وفي المحكمة الشرعية لا يجوز أخلاقيا له أن يختلي

بها, فماذا لو أن الشيطان أغواهما, ووقعت الواقعة, وجاء في يوم الدخلة وقال إن العروس ليست بكرا !

ستحل حينها الكارثة على رأس أبيها وأمها وإخوتها وكل أهلها, وقد تكون حياتها حينها ثمنا لغلطة ما هي حرام, ولا هي خطيئة .

فكما كل شيء يسير على عجل, تمت برمجة الأسبوع الذي يفصل يوم الخطبة عن يوم الزواج بكل دقة, فيوم تم تخصيصه للجهاز, وآخر لطباعة بطاقات الدعوة وتوزيعها على المعازيم, وبالطبع تم دمج حفلة الخطوبة بحفلة الزفاف, يوم تم تخصيصه لحجز قاعة الأفراح, ويوم لإعداد الطعام, وهذا كله كان يعني أن أياما شاقة بانتظار الجميع, الأب والأم والعريس والأخ والأقارب, إلا هي !

هي لا تهتم بشيء, فهي تشعر بأنها كما لو كانت أضحية العيد, أو في أحسن أحوالها كما لو كانت "عروسة المولد", أي لعبة للكبار, هي تخيلت العرس أصلا لعبة الكبار, وهي لا تهتم فعليا, بل لا تفكر إلا في لحظة الخلوة, وكيف ستكون الدخلة, تحاول أن تتخيل تلك اللحظة التي ينفجر فيها داخلها, ولا تدري بالضبط ولا حتى هي قادرة على تخيل مدى اللذة أو الألم أو كليهما معا .

لم تنم تلك الليلة, كانت تتقلب في فراشها, كما لو كانت تنام على جمر, فتمر برأسها كل الصور التي سبق لها وأن شاهدتها في الأعراس التي كانت تتم في البلدة القديمة, وما كان يتخللها من رقص بالسيوف والخيول, ومن حلقات الدبكة للشباب والصبايا, كانت في كل تلك الأعراس تحاول أن تقترب من العروس لتعرف سر فرحتها, أو حقيقة مشاعرها, وأي تحول ذلك الذي يحدد كنه انتقال البنت من بيت أبيها, حيث تكون هي واحدة من أهل البيت, إلى بيت زوجها حيث تصبح هي سيدة البيت .

ولأنه ما من شيء بلا ثمن, ودّت لو أن عقلها الصغير قادر على أن يدرك حقيقة ذلك الثمن, وكيف لها أن تدفعه, وهي لا تكفُّ عن التساؤل, لم يدفع الرجل فيها كل هذه النقود, لم يشتري لها الذهب, ولم يشتري غرفة النوم والصالون, ولم جاء من آخر الدنيا, ودفع كل هذا المال من أجلها, أليست هناك مئات بل آلاف النساء اللواتي كان يمكنه أن يأخذ أية واحدة منهن ويوفر تسعة أعشار ما دفعه فيها ومن أجلها من نقود ؟ !

جاء مبكرا في صباح اليوم التالي, الرجل الذي صارت بين ليلة وضحاها تنسب له, بعد أن كانت تنسب لنفسها أو لأبيها, دق جرس الباب, فتحت أمها, وأدخلته الصالون, ثم جاءت إليها تقول لها :

خطيبك اجى يمّا, يا الله حضّري حالك بسرعة شوي لحتى ننجز شغلنا اليوم ع البدري .

قامت متثاقلة وذهبت إلى الحمام, أخذت دوشا باردا على عجل, فدب في جسدها النشاط, فيما كانت الأم تحضّر لخطيب ابنتها القهوة .

كانت ما زالت بالبيجامة حين سلمت عليه, فوجئت به يقوم باحتضانها وتقبيلها على رأسها ثم على خدها, ويقول لها : مبروك يا عروسة .

بادرت أمها بالطلب منها أن تذهب إلى غرفتها وأن تجهز نفسها للخروج, من أجل شراء الشبكة وجهاز الفرح .

_ 3 _

أقام سمير منذ جاء في فندق ريفولي الذي يقع بنفس شارع صلاح الدين, القريب جدا من البلدة القديمة والذي لا يبتعد سوى أمتار عن بيت أبي نور الدين, لذا فقد وفَّر هذا الأمر عليه وقتا مهما, ثم ولكون شارع صلاح الدين يعتبر شريان التجارة في القدس وواحدا من أهم شوارعها الذي يحمل اسم محررها من الصليبيين, صلاح الدين الأيوبي, لذا فإن سمير ونشوى وأمها لن يحتاجوا حتى الخروج من الشارع لشراء كل ما يلزم العروس من ذهب وجهاز وملابس .

لكن نشوى تعشق البلدة القديمة, لذا طلبت منه أن يذهب إلى سوق باب خان الزيت, وهو أشهر وأطول شوارع البلدة القديمة, يبدأ من مفترق شارع الواد وعلى بعد أمتار قليلة من مدخل باب العامود, ويمتد حتى سوق العطارين, وهو يعجّ بالمحلات التجارية المختلفة والمتعددة .

كان الوقت ما زال صباحا, مرّوا بمحمص القضماني, ثم محل السلفيتي للمواد الغذائية, وما هي إلا لحظات وكانت رائحة البن تزكم الأنوف, حيث مطحنة صندوقة العريقة التي عمرها أكثر من خمسين سنة, قرب مدخل حارة النصارى .

قرب درج الأقباط توقفت نشوى وأصرت على أن تأكل "المطبق" من "زلاطيمو" بائع الحلوى العريق المشهور الذي يحترف صناعة الحلوى منذ مئة وخمسين عاما .

ما أن انتهوا من سوق خان الزيت حتى كانوا قد دخلوا سوق العطارين المشهور بالتوابل والأعشاب, وكان سمير كما لو كان سائحا, ترى علامات الدهشة على وجهه كلما رأى محلا تجاريا, أو حرفيا ما, وكان في الحقيقة معجبا بالتخصص الذي هي عليه أسواق القدس, بحيث أن من يريد حاجة, يعرف إلى أين يذهب دون أن يضيع الكثير من الوقت, أما هو فهذه المرة يرغب لو أن لديه الكثير من الوقت ليقضيه مستمتعا باكتشاف أسرار واحدة من أعرق المدن في العالم, ومن أجل إرضاء خطيبته التي تبدو أنها ليست أقل منه متعة في التجول بأسواق القدس دون أن تريد شيئا محددا .

إلى الأمام تماما من سوق العطارين كان سوق الباشورة الذي اشتهر بعد العام 48 ببيع الملابس المستعملة ثم كانت حارة الشرف, والتي باتت تعرف بحارة اليهود, شعرت نشوى للتو بأن الدماء تغلي في عروقها من كثرة ما رأت من الأعلام الإسرائيلية وأعمال الحفر التي لا تتوقف ليل نهار, كذلك من كثرة وجود المجموعات السياحية الإسرائيلية في تلك الحارة .

إلى هنا عاد الثلاثة أدراجهم, وتوجهوا إلى محل التميمي بشارع الرشيد, لشراء الشبكة, طلبت أمها من البائع أن يعرض عليهم كل ما يلزم شبكة العروس من حلي وعقود, حلقان وخواتم, فأحضر الرجل نماذج عديدة من كل عيارات الذهب, لكن أمها طلبت منه أن يعرض عليهم عيار 24 فقط .

لم تهتم هي كثيرا, وكانت تستعرض بعيونها الفضيات التي هي مغرمة بها كثيرا, لما هي مرسومة عليها من نقوش تاريخية على عكس الذهب .

اختارت الأم ما أرادت وما كانت موقنة من أنه سيبيض وجهها أمام الناس, فيما دفع السيد سمير الثمن, وحين سألها إن كانت تريد شيئا آخر أو إن كان يعجبها شيء لم يشتروه لها, قالت :

نعم أريد ذلك العقد

جنَّ جنون أمها, فقد كانت تشير إلى قلادة تصور السيدة العذراء وهي تحمل طفلها, وكانت من الفضة وليس من الذهب .

وسرعان ما صاحت الأم مستنكرة : هذه للنصارى, وخاطبت البائع قائلة :

شوف إلها قبة صخرة وألا أقصى وألا حتى خارطة فلسطين .

تذكرت حينها نشوى زميلتها بالمدرسة التي كانت تحبها جدا "تيريز" التي كانت تضع سنسالا في رقبتها يتوسطه الصليب !

بعد التميمي ولجوا محلات صندوقة, حيث اشتروا الأحذية اللازمة لعروس لم تنتعل من قبل حذاء يرتفع أكثر من 5 سنتمتر عن الأرض, لكن أمها اشترت لها أحذية منها ما يرتفع عن الأرض بأكثر من 12 سنتمتر, ضحكت بداخلها حين تخيلت نفسها تنتعل هذا الحذاء وإلى جوارها هذا الرجل الذي بالكاد يبلغ طولها وهي حافية القدمين, وتخيلت بأنها معه في ليلة الزفاف ستكون مثل الملكة نور .

هكذا لم يمض من الوقت أكثر من بضع ساعات وكان الثلاثة قد أنجزوا المهمة على خير ما يرام, فقد اشتروا الشبكة والأحذية والملابس, والماكياج, كذلك أوصوا على فستان الفرح, الذي سيكون جاهزا قبل يوم من موعد الزفاف بعد أن دفع العريس تقريبا ضعف ثمنه ليكون جاهزا بهذه السرعة . كذلك اتفقت أم العروس مع الكوافيرة على موعد تصفيف شعر العروس يوم الزفاف .

بدأت الزفة من بيتنا إلى ساحة المسجد الأقصى, وفي الطريق وحيث كان مستر سمير يتأبط ذراعي كانت تمر بذاكرتي صور عديدة, كنت مولعة بالبلدة القديمة, وفي كل يوم وبعد أن أغادر المدرسة كنت أذهب إليها, أتنطط في شوارعها الضيقة وأقابل الأولاد الذين كانوا يكتبون لي الرسائل ويقومون بإرسال القبلات لي من بعيد, اشتري الحلقوم والشيكولاتة كذلك الكعك والفلافل, تذكرت الشيخ عبد الله بلحيته الكثة, الذي كان كلما مررت بقربه اسمعه يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم, اللهم ارحمنا برحمتك, ومن كثرة ما رددها كلما مررت في ذلك الزقاق بالقرب من دكان العطارة خاصته, فكرت يوما أن أسجل عليه واحدا واعمل فيه مقلبا, فما أن اقتربت منه حتى نظرت إليه مباشرة وغمزته, ارتعد وبحلق بي بشهوة أعرفها جيدا, وردّ لي الغمزة وأشار إلى أن أدخل الدكان, بالغت في الذهاب به بعيدا, فأشرت له, أن لاحقا, ومن يومها كلما مررت قريبا من دكانه, يقوم بالإشارة لي أن تعالي .

الشيخ عبد الله مثله مثل أخي نور الدين وآخرين, يطلقون ذقونهم لا أدري لماذا, ويحملون مسابح طويلة بأيديهم, يدّعون أن حال الناس لا تعجبهم, وحين يرون جنديا إسرائيليا, شرطيا أو حتى متدينا ممن يطلقون سوالفهم ويضعون القبعات على مؤخرات رؤوسهم, حتى يظهرون دلائل الطاعة والولاء, ولو أنه حدث وأن اندلعت مواجهة بين الشباب والجنود يسارعون إلى إغلاق دكاكينهم, ويقولون : الدين يقول ولا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة .

كانت فكرة مستر سمير أن نشهر الزفاف في ساحة المسجد, ليكون مباركا, وقد لاقت الفكرة كل هوى في نفس أبي وأمي وأخي نور الدين بالطبع, الذي أضاف قائلا, شرط أن لا يظهر من العروس ما هو محرم على الملأ, فباحة المسجد مكان عام .

لا اذكر كثيرا أني دخلت باحة المسجد من قبل, إلا مع الرحلات المدرسية, وفي مناسبات عامة, أيام الأعياد وما شابه, وأذكر يوما كنت مع زميلاتي بمراييل المدرسة, أعجبني شاب بعمري كان يصلي, وكان الطقس صيفا, يرتدي قميصا نص كم, مفتول العضلات, أشقر وشعره ناعم وطويل, رشيق القوام, نظرت إليه ولم أقو على أن أحوّل نظري عنه, إلى أن نظر لي وابتسم, ثم اقترب مني, وقال : السلام عليكم .

مجرد أن سمعت الكلمة, لم تعد بنفسي رغبة في أن أواصل النظر إليه ولم أرد عليه بالطبع .

_ سمير _

شو هالبنت, بتاخد العقل, هيك تمام التمام, بتنفعني كتير, كتير من الحفلات بنزبط فيها عقود شغل, ومعظم أصحاب الشركات والبزنس, بكونوا كبار بالسن ومعهم زوجاتهم, أنا صار عمري 33 سنة, وصار عندي شركة مربطة مع شركات كبيرة وين ما كان, كتير حفلات كنت اعتذر عنها, على مستوى حفلة عامة, باخد ليزا معي, بمشي الحال, لكن هيك خلص أموري ماشية تمام, صحيح كلفتني القصة اكتر من خمسين ألف دولار, لكن بشي حفلتين جايات بنطلعهم, باخدها معي, بعلمها كيف تشرب الكاس مع اللي بيكون عيني عليه, وبهيك بتفتح لي الباب لأعمل العقد, شو حفلتين, ولا بربع حفلة .

الأهم إنها على الكتالوج, اجت تمام, أنا كنت عارف شو بدي, بنت 18 سنة, فقيرة, بتكون متل الخاتم بصباعي, مجرد تشوف العز والمصاري بتصير أوامرك سي السيد, لكن إنها تيجي بهالجمال هاد, طول ورشاقة وخفة دم, والله هيك أخت الشلن, بتخلي العيون علينا وين ما نروح, وكلهم راح يحكوا شو هاد سمير, مش مذوق وبس, بعرف كيف يشتغل, وبعملوا الشغل معي وهم مطمنين .

الله وكيلك يا أخي متل المهرة, بالضبط, أول ما شفتها, قلت يا الله, حط الركاب واركبها, لقيتها صهلت, ونقزت متل الغزال .

_ نشوى _

_ 1 _

أنا عارفة لشو كل هالطبل وهالزمر, وهالغلبة, قال شو بدهم يفرحوا, الله وكيلك كأنه العروس والعريس لعبة والناس بدها تتسلى فيها, مش كان خلص, أكتب سيدنا الشيخ هالورقة وخلصنا, مهي راحت وألا اجت ورقة متل عقد إيجار شقة أو متل بيعة دكانة, والّا حتى لشو كل هالغلبة, زمان كانت كل القصة, إيجاب وقبول, حتى القرآن الكريم دونوه بعهد عثمان. تتوقع التالي فتتذكر: ياه أنا كنت شوي وبدي أغلط لولا بآخر لحظة, هربت, آخ منك آخ يا جليل .

لحظات وكان العروسان يدخلان وحدهما الغرفة المحجوزة لهما بالأوتيل الخمس نجوم بالبلدة القديمة, لم تكن مرهقة ولم تشعر بأي تعب بل كانت مثل العفريتة, تتوق بشوق إلى أن ترتمي بحضن الرجل, الذي طالما تشهّت أن تضاجعه, وحلمت به الليالي الطوال, حين كانت تغمض عينيها وهي ممدة في فراشها, وتدس يدها بين ساقيها, فتغنج كما لو كان فوقها, وفي لحظة يدخل فيها, تكتم صرخة حادة, مخلوطة بالألم واللذة, وما هي إلا برهة وترتخي, بعد أن يكون سروالها الداخلي قد تبلل .

ساعدها على خلع فستان زفافها, ثم طوَّقها بذراعيه وطبع قبلة على خدها, فك لها "سحاب" الفستان, فظهر له بياض الظهر لامعا مدهشا ومثيرا, تحسسه بيده, ابتعدت عنه قليلا لتواصل خلع ملابسها, في الوقت نفسه بدأ هو أيضا بتغيير ثيابه, خلع بدلته ثم قميصه فبنطاله, فملابسه الداخلية ولم يرتد شيئا, أما هي فارتدت قميص نوم مثير للغاية, وفي الوقت الذي جلست فيه أمام المرآة لتمسح ماكياجها تمدد هو على السرير مغطيا جسده بالملاءة فقط .

ما أن انتهت حتى سارعت بالتمدد إلى جانبه, حضنها وبدأ بتقبيلها بقوة وشهوة, انتفضت مثل الفرس الجامحة, وفي لحظة كانت تمسك عضوه الذكري, وما أن نظرت إليه, حتى أغمي عليها, ذهل هو, فأسرع إلى دلق كوب الماء على وجهها .

كان حجم عضو زوجها الذكري مفاجأة غير سارة لها, فهي منذ أن قام جليل بفعلته معها قبل عام, بدأت تعتقد بأن أعضاء الرجال جميعا بنفس الحجم, الطول والعرض والضخامة, وهي منذ عام وهي تحلم بهذا الشيء بحجمه وضخامته يدخل بين فخذيها, انطبع في ذهنها على هذه الشاكلة وعلى هذه الصورة, أي كابوس هذا الذي يحقق لها في الواقع صورة مصغرة عما تشهّت, كيف لمثل هذه "الدودة" أن تشبعها وهي التي لا تفكر في هذه الدنيا ولا تريد منها شيئا سوى المتعة ؟ !

ظنّ الزوج بأن عروسه الشرقية الصغيرة العذراء التي لا تعرف شيئا عن الجنس قد أغمي عليها من الخوف, وهي تواجه لحظة فض بكارتها, فما أن صحت حتى كان يدخله فيها, وما هي إلا لحظة حتى كان دمها يتناثر على فخذيها مختلطا بماء شهوته, فتتكور هي على ذاتها مكتئبة يائسة, فيما هو يرتخي على ظهره منتشيا .

_ 2 _

صباح اليوم التالي كان بائسا, غادر هو لينجز ما لديه من معاملات ولقاءات, وليؤكد حجز السفر, أما هي فبقيت وحدها, تبكي ما شاء لها البكاء, إلى أن خطرت ببالها الفكرة الجهنمية, التي قررت أن تحتفظ بها, إلى أن يعود ذلك الرجل, الذي أخذ منها لحظة كانت تريدها واحدة من أجمل لحظات حياتها وأكثرها متعة, لكنها ويا لسوء حظها كانت على العكس من ذلك تماما, شاركت بها رجلا لم تحبه ولن تحبه, وحتى آخر يوم في حياتها, حتى لو كان هو الرجل الوحيد في هذه الدنيا .

لأنها امرأة ضاجّة بالأنوثة, فإن الرجل يعني لها أن يكون فحلا, يشبعها, وإن لم يشبعها لأي سبب, بيولوجيا كان أو سوسيولوجيا, فما حاجتها له, هي أجرأ مما يتصور هو, وهو على أي حال غريب, منذ سنوات طويلة وهو يعيش في بلاد الغرب, ولا يعرف شيئا عنا هنا, المواجهة اليومية, خاصة تلك السنوات التي شهدتها وأنا طفلة بنت العشر سنين, علمتنا كيف نأخذ حقوقنا, وحقوقنا السياسية مستلبة من عدونا, لكن حقوقنا الاجتماعية مستلبة من تخلُّفنا, من عاداتنا وتقاليدنا, ومن يريد أن يتحرر لازم يتحرر من كله .

نشوى ليست مثل أمها ولا جدتها, لم يكن بالضرورة لها أن تذهب لأكبر الجامعات في الدنيا حتى تعرف حقها الشخصي, لكنها لا تقبل أن تقوم بمهمة من تشبع حاجات الرجل, ولا يقوم هو بإشباع حاجاتها, هذه أول صفة وجدت نفسها قد خلقت بها, وحقا هي مثل الفرس الجامحة, لكنها أصيلة, لا يمكن أن يمتطيها إلا فارس على قد حاله, وهي لا تعطي قيادها لأي كان ولو مهما صار .

حين عاد حاول أن يعاشرها فتمنعت, وتعللت بأنه لا يجوز قبل مرور ثلاثة أيام على فض البكارة العودة للجماع وإلا حدثت التهابات ومشاكل, بلع ريقه وقبل الأمر على مضض وطلب منها أن تحضر نفسها للسفر إلى باريس لقضاء شهر العسل, غدا, حيث سيغادران الفندق صباحا إلى بيت أهلها لتودعهم ومن ثم يذهبون إلى مطار اللد , أما الآن فهو يريد أن يخلد للنوم .

باريس, غدا, يعني سأسافر, وسأبقى معه, ألن أطلب منه الطلاق, مجنونة أنا, لو أنه لم يفض بكارتي لكان الأمر أفضل, أما وقد فعل, فلن يقبل هو أولا وثانيا أمي وأخي والناس, ماذا أفعل, هل أهرب في باريس ؟ التساؤلات بتاخد فيها وبتجيب, لحظات وكان النعاس يغلبها هي أيضا, فتنام .

في اليوم التالي وحين جاء زوجها بسيارة الأجرة ليأخذها إلى المطار من بيت أهلها, كان أبوها يضعها في حضنه ويدللها كما لو كانت ما زالت طفلته الصغيرة المدللة, ينظر إليها ولا يقوى على الكلام, لكنها كانت تعرف ما يريد أن يقول, وحين صارت بباب المنزل, ودّعها ولم يبك, لكنه أعطاها مغلفا وطلب منها أن لا تفتحه إلا بعد أن تصل كندا, لكنها فتحته بعد يومين لتجد فيه ألف دولار وكلمتين : يمكن تحتاجيهم لما بدك ترجعي .

كانت أول مرة تركب فيها الطائرة, جلست على مقعدها الذي جاء موازيا لجناح الطائرة, أغمضت عينيها, شعرت كما لو كانت تمتطي طائر الرخ, تمسك بجناحه فيحلق بها في السماء تغمرها السعادة والفرح, ولم تصح من حلمها الجميل إلا وسمير يضع يده في ذراعها ويهمس بأذنها : مبسوطة حبيبتي

كتير كتير, ردت وهي مغمضة العينين .

_ باريس _

_ 1 _

مضى الوقت كما لو كانت في حلم, تغفو وتصحو إلى أن وصلت الطائرة مدينة الجن والملائكة, وما هي إلا لحظات حتى كان يقف شاب وسيم يقترب منهما ويسلم على زوجها بحرارة, نظرت إليه بشهوة, ورأت فيه أول وهلة جليل الذي تركته وراءها كحلم لم يتحقق منه شيء, سوى تلك اللحظة التي لن تنساها طول عمرها, وستظل ملتصقة بذاكرتها, كما الصاعقة التي حطّت عليها وجعلت من ليلة دخلتها كابوسا .

هذا هو عصام مدير مكتبي, الذي اعتمد عليه في كل شيء, سيقوم بإيصالنا إلى الفندق, هذه عروسي نشوى يا عصام .

سلم عليها الشاب باحترام جم, ثم تناول منهما الحقائب وسار أمامهما باتجاه الليموزين الواقفة على بعد أمتار .

سارت بهما السيارة في شوارع مدينة النور, وهي تنظر يمينا ويسارا مأخوذة بما ترى حولها, رجال وفتيات يتأبطون أذرعة بعضهم بعضا, بعضهم شبه عراة, بعضهم يقبّلون بعضهم بعضا, دون أي تردد أو خوف .

أوصلهما الشاب إلى الفندق ومن ثم إلى الجناح الذي سيقيمان فيه شهر العسل بأيامه الثلاثين كاملة, كما لو كانا يتزوجان بعد قصة حب عاصفة, أكيد أنه قد عرف الكثير من النساء, لذا فليست قصة كبيرة بالنسبة له أن ينام مع امرأة, وهي لم تحبه ولم تستمتع معه, لذا فإن كان لا معنى لشهر العسل بينهما, فليكن المعنى لأيام باريس المدينة الساحرة التي لا تشبهها مدينة في الدنيا . وضع الحقائب وقال لهما, استريحا قليلا, وفي المساء أنتظركما لنذهب لتناول العشاء في مطعم فاخر هنا .

ألقت بجسدها على السرير دون أن تغير ثيابها, ثم غفت, مرَّ من الوقت, ربع ساعة تقريبا, كان خلالها سمير قد أخذ حماما دافئا ولبس بيجامته, ثم ارتمى بجوارها وأخذ يحضنها ويقبلها فانتفضت مذعورة . ايش هادا, مش شايفني غفيت . اعتذر, ثم قام وفتح حقيبته الصغيرة التي تكون معه دائما وأخرج منها خاتما ثمينا وقال لها : هذا لك, مبروك حبيبتي .

كان المطعم فاخرا حقا, وكان يبدو أن معظم رواده من العرب, في الزاوية القريبة من منصة المسرح, كان عصام قد حجز لهما طاولة خاصة, ما أن وصلوها حتى وجدوا أن إدارة المطعم قد فاجأتهما بهدية عبارة عن قالب حلوى, مكتوب عليه "ألف مبروك الزفاف" وما أن دخلوا حتى أطفئت الأضواء, ورافقتهم موسيقى عبارة عن زفة العروس الشرقية التي ترافق صوت شريفة فاضل :

مبروك عليك يا معجباني يا غالي

عروستك الحلوة قمر بيلالي

ضحكت من أعماق قلبها حين سمعتها تقول

مبروك عليكم بعد شوق ومحبة

والسعد جمّع شملكم يا أحبة

شعرت بأنها تطير مجددا وهي ترى كل أنظار الحاضرين تصوب عليها, حتى خالت نفسها كما لو كانت نجمة في السماء أو قمرا على الأرض .

كان على المائدة كل ما يمكن أن تتصوره من أصناف الطعام, وحيث أنها لا تأكل كثيرا, خاصة كل ما له علاقة باللحوم, فقد أخذت في تذوق السلطات الشرقية, فيما تناوب زوجها ومدير مكتبه على إجبارها على تناول لقيمات مختلفة, حتى شعرت بأن بطنها انتفخت, فوجئت بعد وقت برجل جاء من طاولة مقابلة يرتدي ملابس مزركشة, ويضع الكثير من الإكسسوار, في عنقه وبيديه, إضافة للخواتم الذهبية, أنقذها من الطعام الزائد عن حاجتها الإجباري, حين تقدم منهم, وسلّم عليها, دون مقدمات, قائلا :

مرحبا, الأخوة عرب مو هيك, محسوبكم, سعيد بعلبكي, منتج فني, شو المدام تحب تطلع مع كبار النجوم بالفيديو كليبات .

ما فاجأني هو أن زوجي لم ينفعل, بل عرض على الرجل الجلوس ومشاركتنا مائدة الطعام, ثم قال له :

سيد سعيد, بيشرفنا هالعرض, لكن نحنا مسافرين لكندا يعني منا مقيمين هون .

رد عليه البعلبكي قائلا :

شو عليه, ما في أي مشكلة, وين ما كانت المدام, طيارة مخصوص بنجيبا, بعدين يمكن يكون لنا شي تصوير بكندا أو بنيويورك, بصراحة المدام ستايلها كتير حلو, وكل نجوم العرب راح يجنو وتطلع معن بكليباتن .

وتابع : هيدا كرتي, أنا كمان هوني من شي يومين بس, خلينا نتواصل ونتفق .

أخذ زوجي الكارت الخاص ببيانات الاتصال بالرجل ودسّه في جيبه .

بعد قليل انطفأت الأضواء, وصدحت الموسيقى, في الوقت الذي صعد فيه سعيد خشبة المسرح, ليعلن عن وصول الفنان النجم راشد الماجد .

ليبدأ الغناء والرقص يملأ المكان بشكل جنوني

يسألوني ليه احبك حب ما حبه بشر
وليه أنتي في حياتي شمسها وأنتي القمر
وليه صوتك لي وصل صحاري يملاها الزهر
علميهم يالحبيبه آه يا أغلى حبيبه

https://www.youtube.com/watch?v=8tuL2KuMvAA

لم تشعر بحالها إلا وهي تنهض ثم تسير إلى مقربة من المسرح وتبدأ في الرقص, الأمر الذي أطار عقول الحاضرين, لدرجة أن الفنان هبط من على الخشبة وأمسك بيدها, وأخذ يغني معها, هي ترقص وهو يغني, فكانت ليلة من العمر .

_ 2 _

في اليوم التالي أخذها بجولة في المدينة ,أخذها إلى برج إيفل, الذي يعتبر رمزا لباريس, أقصى شمال غرب حديقة شامب دي مارس, بالقرب من نهر السين, حيث تناولا طعام الغداء في مطعم "Altitude 95", وهو مطعم رومانسي تتوفر فيه المأكولات البحرية, ويقع في الدور الأول من البرج . كانت وهي على طاولة الطعام ترى كل مدينة النور أمامها, أينما نظرت على مدار 360 درجة دائرية, وبعد انتهائهما من تناول الطعام, صعدا عبر السلالم للطابق الثالث من البرج, ثم استخدما المصعد للصعود إلى القمة .

بعد ذلك امضيا أكثر من ساعتين يتجولان في ساحة شون دي مارس التاريخية الشهيرة, حيث كانت تشعر بالدهشة من المشهد البصري الممتد أمامها, ثم واصلا جولتهما بالتنزه في حديقة لو شامب دي مارس على بحيرة أنسي, فكان مشهد البحيرة وجبال الألب المحيطة بها يكاد يخطف منها بصرها .

أكملا يومهما بالذهاب إلى قصر فرساي, الذي يبعد نحو 20 كيلو مترا عن وسط العاصمة, والذي لا يعتبر واحدا من المباني التاريخية الضخمة والمدهشة من حيث فنها المعماري وحسب, بل رمزا للنظام الملكي المطلق الذي حكم فرنسا حتى نهاية القرن الثامن عشر والذي انتهى بإعدام الثورة الفرنسية الملك لويس السادس عشر وزوجته الملكة ماري أنطوانيت بسكين المقصلة .

لم يعجبها القصر كثيرا فهي لا تحب القصور والمباني الفخمة أصلا, لكنها أحبت كثيرا الحديقة الملحقة به, التي تملأها النوافير, وأحبت على نحو خاص حدائق البرتقال التي تقع جنوب شرق الحديقة, فشجرة البرتقال هي شجرة منتشرة جدا في بلادنا خاصة على ساحل المتوسط, وشهرة

برتقال يافا وغزة معروفة وتملأ الأفاق, كما كان منظر نافورة لاتونا التي جاء تصميمها على شكل كعكة الزفاف غاية في الروعة, والمؤلفة من عدة طبقات تضم كل واحدة منها عددا من التماثيل والزخارف .

_ 3 _

شهر كامل أمضته في باريس, كانت كأنها في حلم, فهي بنت صغيرة, لم تغادر أسوار المدينة المقدسة, إلا إلى المدن الفلسطينية القريبة, في الرحلات المدرسية ولزيارة الأقارب وفي الأعياد, هيك يعني أول ما شطح نطح ؟ يعني أول ما تسافر برة البلاد, على باريس خبط لزق, ومش ترانزيت أو مع جروب سياحي يومين, تلاتة أو حتى أسبوع, شهر كامل, وكل يوم رحلة لمكان, الله على برج أيفل, حين صعدت إلى الأعلى, تمَّنت لو أنها كانت عصفورة, لكانت حلَقت وطارت وبنت عشها على قمة البرج . كانت في غاية السعادة, لولا ذلك الواجب الأسبوعي, الذي تنكتم أنفاسها خلاله, والذي نغَّص عليها وقتها, وبدّد حلمها, منذ أول لحظة ظنته فيها قد تحقق .

غريب أمر هذا الزوج, ما أن انقضى الشهر, حتى كان يحجز لها ولعصام رحلة الذهاب من باريس إلى مونتريال وحدهما, وكأنه يحضّر بنفسه للحظة ستجيء بعد عشر سنوات, هل يكون لما فرضته عليه بخبث النساء من معدل لا يتعدى المرة الواحدة في الأسبوع لأداء ذلك الواجب, ومنذ شهر العسل علاقة بذلك الترتيب, أيعقل أن يكون يفكر في محفّز يثيرني, مستحيل أن يصل به الأمر إلى هذا الحد, على أي حال هذا الشاب موظف عنده, وهو يعرفه أكثر مني, وأكيد انه يثق به, وإلا كيف يرتب بنفسه, وأنا عروس بالكاد أمضيت الشهر الأول معه, أمر سفري أنا وعصام وحدنا, فيما هو يطير إلى ألمانيا لترتيب أمر خاص بالعمل على الأغلب هو صفقة تجارية .

غادر ثلاثتهم إلى المطار, حيث افترقوا, سمير باتجاه بوابة الخروج نحو الطائرة المتجهة إلى برلين, وعصام وهي باتجاه البوابة التي ستهبط أمامها الطائرة التي ستقلهم إلى مونتريال, جلست في المقعد الداخلي فيما جلس عصام إلى جوارها, ها هي تواصل رحلة الابتعاد عن القدس بحاراتها القديمة وشارع صلاح الدين حيث ولدت وعاشت في ذلك البيت الصغير ببابه الأخضر, بل ها هي تدخل إلى مرحلة جديدة من حياتها مختلفة بكل معنى الكلمة, حياة لم تحلم بها ولم تخطط لها, بل ولا تريدها منذ اللحظة الأولى وقبل أن تراها, لأنها ستكون مجبرة على العيش فيها مع ذلك الرجل الذي لم يدخل قلبها أبدا, بل كان ثقيل الوقع عليه منذ اللحظة الأولى التي اختلى فيها بها. وضعت غطاء العينين على عينيها, واسترخت, وقبل أن تقفل عينيها نظرت إلى ركبتي الشاب الجالس بجوارها, فخالت أنها ترى تحت سرواله, شيئا سبق لها وأن رأت مثله, أغلقت غطاء العينين فمرت بخيالها شوارع القدس .

سبع ساعات بالجو ستستغرق الرحلة, كانت كافية لها لتؤجل لحظة الدخول إلى السجن الفاخر الذي يشبه قفص العصفور والذي أعد لها, كانت تهرول مسرعة بعد أن قرع جرس المدرسة إيذانا بانتهاء اليوم الدراسي والعودة للبيت, تمر على البقالة, لتشتري الحلقوم الذي تحبه, تأكل

بنهم وتتنطط في شوارع القدس القديمة, حيث اعتادت أن تفاجأ بزميل من الطلاب بعمرها, يقترب منها ثم يمد يده لها برسالة, تفتحها فترى رسومات رؤوس القلوب وعلامات الحب, ثم تقرأ كلمات الغرام, تضحك وتنظر له من بعيد وتطيّر له قبلة في الهواء, فلا يكاد الفتى يتمالك نفسه .

أين أنت الآن يا جليل, كان يتعقبها من زقاق إلى زقاق في البلدة القديمة, يحكي لها عن حبه, وعن أحلامه, فهو يخطط بأن يقوم باليوم التالي لتخرجه بخطبتها, يريد منها فقط أن تنتظر عامين, فهو بالسنة الثالثة بالجامعة, يدرس الفنون الجميلة, سيتخرج وستكون هي بطلة مشروعه للتخرج, بل ستكون ملهمة أعماله كلها, يظلان يسيران معا هو يتحدث وهي تستمع, وكلما خلا الشارع الضيق من المارة اقترب منها وطبع على خدها قبلة, إلى أن يصلا كنيسة القيامة, حيث هناك يدخلان في واحدة من الزوايا التي تنحجب فيها الرؤية فيقوم بتقبيلها بفمها, فتشعر بالخدر في كل أوصالها, هكذا اعتادت نشوى برحلة عودتها اليومية من المدرسة للبيت, كما اعتادت على رفقة جليل كلما فتحت الشباك وأشار لها بأن تخرج, أول مرة دخلت إليه في منزله حيث دعاها لشرب الشاي, دهشت من وجود تماثيل عديدة لرجال ونساء عراة, ولما سألته عنها, قال هي تحف فنية لمايكل أنجلو, ضحكت, من هذا أنجلو, أنا اعرف مايكل جاكسون, حدثها كلاما كثيرا, وحين دخلا معا غرفته, رأت هناك صورة لامرأة عارية وتمثالا لها, سألته فقال هي لوحة المرأة العارية الجاثية, وتذكر انه قال لها بأن جسد المرأة العاري هو أجمل شيء في الوجود, ردت عليه حينها, لكنه خاص جدا, يجب أن لا يراه أحد سوى حبيبها, أعدك يا جليل أن لا يرى جسدي عاريا أحد سواك, حينها قبّلها وقال, وأنا أتمنى أن أجسدك بتمثال مثل تماثيل مايكل أنجلو, ثم ضحك وقال :

لكن هلا خليني أحاول أرسمك بلوحة .

ارتسم الخجل كله على وجهها وقالت

بدك ياني أتعرى لك من هلا ؟ !

لم يقطع الحديث بينهما سوى وصول أمه بصينية الشاي .

وذات يوم دعاها, إلى بيتهم وكان أهله قد سافروا إلى نابلس, شربا الشاي معا, ثم طلب منها أن ترى غرفته حيث ينام ويدرس, وفي لحظة كان يطوق خصرها بيديه, ثم يحط بشفتيه على شفتيها يمتصهما بقوة أطارت عقلها, وحين أخذتها النشوى, لم تصح إلا وهو يقوم بفك "سحاب بنطاله" ويخرج عضوا ذكريا منتصبا, ثم يمسك يديها ويضعه بينهما, انتفضت ولم تعرف ماذا تفعل من هول الدهشة, وما هي إلا لحظة وكانت تفر منه وتهرب خارجة مسرعة إلى بيتها .

منذ تلك اللحظة لم تغادر صورة عضو جليل خيالها, ولأنها أول مرة ترى فيها هذا العضو الذكري, فقد ظنت بأن كل أعضاء الرجال هكذا, بهذا الحجم وهذا الطول وعلى هذه الشاكلة, إلى أن كانت ليلة دخلتها مع سمير, وفوجئت بتلك المفاجأة الصاعقة, التي دفعتها لأن تكره الرجل وعضوه والحياة معه .

الفصل الثاني

_ مونتريال _

_ 1 _

من المطار أقلتنا السيارة عبر شوارع مونتريال التي بدت لي كأنها توأم باريس, المحال كلها مكتوبة أسماؤها بالفرنسية, المباني حديثة الطراز, تبدو فيها الحركة دءوبة لكن دون فوضى أو ازدحام, شعرت لوهلة كأني لم أغادر باريس أو كأني قد ركبت قطار الأنفاق حيث انتقلت من حي لآخر, سارت بنا السيارة نحو نصف ساعة تقريبا حتى صرنا على أطراف المدينة, حيث ظهرت هناك بحيرة مياهها زرقاء, تطير في سمائها العصافير, وعلى شواطئها يحط الحمام والأوز, وددت لو تتوقف السيارة قليلا, لأجلس على حافة البحيرة أتحدث مع الحمام قليلا, لكن ما هي إلا لحظات وكانت السيارة تتجه نحو بيت يبدو كما لو كان قصرا, وما أن وصلنا حتى كان خدم آسيوي في انتظارنا يرحبون بنا ويقولون بعربية ركيكة : مبروك مدام .

شعرت كأني ملكة, لكنها غير سعيدة, أخذني عصام كما لو كان واحدا من أهل البيت ودلَّني على أجنحة القصر, هنا مطبخ كبير وهنا صالون وهنا قاعة احتفالات, وهنا غرفة نوم, وبعد أن انتهى سألني إن كنت أحتاج شيئا, أجبته بالنفي, فطلب الانصراف وغادر .

دخلت غرفة نومي, كان السرير دائريا, متحركا, وكان البذخ يبدو في كل شيء, شعرت بحرية مطلقة, أنا هنا وحدي, كل من في القصر موجودون لخدمتي, بدأت اخلع ثيابي قطعة قطعة, إلى أن وصلت لحمالة الصدر, خلعتها وألقيت بها بعيدا, ثم وكأني مع حبيب, ركضت باتجاه الحمام وأنا أخلع سروالي الداخلي وأضحك, ثم أفتح حنفية الدوش لأستمتع بسقوط حبات الماء كما لو كانت حبات مطر تتساقط على رأسي ومن ثم على كل جسدي, تحسسته ونظرت في المرآة, آه ما أجملك من جسد, لا أطيق أن يراه إلا من أحب .

وحين خرجت كانت مائدة الطعام مكتظة بأنواع عديدة من الطعام, فيها كل الأصناف, لكنها لم تبد لي شهية على الإطلاق .

ما أن تناولت ملعقة من الأرز حتى شعرت بنار تدخل حلقي, كان الطعام كله مخلوطا بالبهارات الحادة, وكان منه الطبق الصيني, الياباني, الهندي, التايلاندي, كل الأطباق الأسيوية إلا الأكل العربي .

ناديت على الطاهي الأكبر سنا :

تعال هون, ما في أكل عربي ؟

_ نو مدام

طيب روح جيب لي جبنة وحليب وبس

_ 2 _

أمضيت نحو أسبوع كان خلاله يجيء عصام كل يوم يسألني إن كنت أحتاج شيئا, وفي كل يوم يأخذني مساء إلى مكان ما, نتجول في المدينة ثم نذهب إلى مطعم حيث نتناول الطعام, كان أسبوعا مريحا بالنسبة لي, فلم أضطر في نهايته لأن أتحمل قرف الواجب الزوجي !

في مساء السبت وصل سمير, قبّلني ثم وضع حقيبته وخلع ملابسه, ثم أخذ حمّاما, وحين خرج, فتح حقيبته اليدوية وأعطاني خاتما ثمينا, ثم حضنني وقبّلني, وأخذ يداعب صدري, وبعد لحظات كان يأخذ مني حقه الزوجي !

جولتي الأولى في مونتريال كانت يوم الأحد, الذي تلا وصول زوجي للمدينة قادما من ألمانيا, وبدأت منذ الصباح الباكر, أغمضت عيني ثم فتحتهما مجددا, ظننت أني ما زلت في باريس, فمونتريال تعتبر كبرى مدن العالم التي تتحدث الفرنسية بعد باريس, نظرا إلى أن ثلثي سكانها من أصول فرنسية, وهي تقع على جزيرة داخل نهر سان لوران الذي ينبع من بحيرة أونتاريو ويصب في المحيط الأطلسي, والذي يعتبر ثاني أطول نهر في كندا .

على مشارف المدينة كان جبل مون رويال أو الجبل الملكي والذي تظهر عليه علامة الصليب, كما لو كان درعا يحمي المدينة, تتوسطه بحيرة, وتغطيه الأشجار فتضفي عليه منظرا ساحرا, مر بي بمدينة مونتريال القديمة التي ذكرتني بالبلدة القديمة في القدس, من حيث تاريخية المنازل, لكن هذه كانت محاذية للنهر .

مررت بمركز بيل المتخصص بالأنشطة الرياضية والذي افتتح حديثا, حيث اعتاد بعد ذلك عصام الموظف عند زوجي, أن يأخذني إليه لتمضية الوقت . بعد وقت كنا ندخل شارع شير بروك, حيث وصلنا الحديقة النباتية المشهورة, وأمضينا فيها أكثر من ثلاث ساعات, حتى جاء موعد الغداء, أذهلتني الحديقة التي تعتبر واحدة من أكبر وأهم حدائق النباتات في العالم, وواحدة من معالم مونتريال بالغة الأهمية, كانت الحدائق مغطاة بالثلوج, حيث أخبرني سمير, بأنها تكون كذلك منذ نوفمبر وحتى ابريل من كل عام . كانت المناظر خلابة حقا, حيث يعرض أهم فناني البساتين في العالم أعمالهم, والمزروعات التي رأيتها كانت تقوم على أساس فن تركيب الأشجار ومن ثم نحتها وتقليمها بطريقة معينة لتظهر على شكل امرأة خضراء تحتضن إوزة, أو على شكل حصان, أو قلب مزين بالورود, لكنه ضخم, ينتصب على شكل مجموعة من الأقواس

المتتالية, كما كانت هنالك مزروعات منحوتة على شكل تماثيل شرقية, على الأغلب أن من قام بإبداعها فنانو نباتات من الشرق, من اليابان أو الصين مثلا . توقفت كثيرا عند لوحة عملاقة تمثل مجموعة من الطيور المشكلة من النباتات الزراعية متعددة الألوان وإن كان يغلب عليها اللون الأخضر بالطبع, إلتقطت عشرات الصور لي مع هذه المناظر الخلابة واحتفظت بها في ألبوم خاص, ما زلت أحتفظ به حتى الآن, وأعدّه من أجمل ما لدي من ذكريات في كندا .

حين جاء موعد الغداء سألني ماذا أحب أن أكل, فأجبت دون تردد :

أكل عربي, شو ما كان إن شاء الله فول وفلافل .

ضحك كثيرا, وأجابني: الفول والفلافل هناك بفلسطين, أكل شعبي ورخيص, هون يعتبر أكل "عليوي" لكن لو بدك لبن العصفور, شبيك لبيك سمير زوجك بين ايديك .

ثم أخذني إلى مطعم الباشا, وحين جاء النادل وبيده " المنيو" , شعرت بالسعادة حين قرأت أصناف الطعام الشرقي, العربي بالتحديد, كان هناك المنسف, والكبسة والمندي, المقلوبة, والمفتول أو الكسكسي, وكانت هناك المحاشي بكل أنواعها .

ضحكت كثيرا وقلت: آه هدا هو الكلام المزبوط, هيك بناكل بقلب ورب .

مسك يدي حينها, وقال: يعني أنت مبسوطة ؟

رديت برموش عيني,بإشارة نعم .

تابع ممازحا: مع إنه ما عنده فول وفلافل ؟ !

بعد الغداء تمشينا في المدينة القديمة, رأيت ألعابا بهلوانية, عربات الخيول والألعاب النارية, شوارع المدينة القديمة ضيقة, يقدمون فيها ألعابا سحرية, رأيت متسولين يعزفون الموسيقى, بنات ينقشن الحنة, بعد خمس دقائق سيرا على الأقدام كنا قد وصلنا الميناء القديم حيث أخذني في الباص النهري برحلة مائية, كانت بالنسبة لي هي المرة الأولى في حياتي التي أجوب فيها نهرا ما بمركب, ثم نزلنا على مقربة من القرية الصينية .

حين صار الوقت بين العصر والمغرب دلفنا إلى شارع سانت كاترين التجاري, اشتريت له مجموعة من أربطة العنق, واشتريت لي مجموعة من قمصان النوم وعددا من التي شيرتات, ثم حكى لي عن ملاهي لاروند, ونحن في طريقنا إليها, ركضت نحو الأرجوحة كما لو كنت ما زلت طفلة, انشرح بالي كثيرا في مدينة الملاهي هذه, ثم كانت المفاجأة المدوية حين أخذني وصعدنا معا طائرة هليوكوبتر حملتنا وحلقت بنا في فضاء المدينة, وجابت بنا كل أنحائها, فكان المنظر من فوق يفوق الوصف وأجمل من الخيال .

سألني إن كنت أرغب في تناول طعام العشاء, وإن كنت أرغب في طعام محدد, أجبته بأني لست جائعة فقد أكلت في الغداء أكثر مما أنا معتادة على تناوله عادة, حينها أخذني وذهبنا إلى كافي شوب, حيث شربنا الشاي معا, وارتحنا قليلا, قبل أن نبدأ رحلة العودة إلى المنزل .

وفي الطريق أخبرني بأن الجولة التالية ستكون في الغابات خارج المدينة, حيث هناك أكثر من مكان يمكن قضاء اليوم فيه منذ الصباح وإلى ما بعد التاسعة ليلا, حيث يمكن التخييم والشواء, كذلك يمكن صيد السمك من النهر أو البحيرة, وهي ليست بعيدة عن وسط المدينة, فقط ربع أو نصف ساعة ونكون قد وصلنا .

_ 3 _

بعد يومين أخذني سمير معه, لأول مرة على شركته, حيث اصطف الموظفون مرحبين بي, بمن فيهم سكرتيرته الفاتنة "ليزا" هذه التي ستحدث لي بعد ذلك بعدة سنوات صدمة, ما كنت أتوقعها, لكنها أفادتني في علاقتي مع هذا الرجل, وبعد نحو نصف ساعة, كان عصام يأخذني إلى معهد اللغة, حيث كان لا بد لي من أن أتعلم إحدى اللغتين الانجليزية أو الفرنسية, حيث لا يعقل بمن يصبح مواطنا كنديا أن لا يتقن واحدة من هاتين اللغتين, إخترت الانجليزية وبدأت أتعلمها في المعهد, وكان الأمر بالنسبة لي إشغالا مهما للوقت, وخروجا من سجن حقيقي, حتى لو كان قصرا, أبقى فيه طول العمر دون أي عمل, إلّا أن انتظر الزوج المصون في المساء, يأخذني إلى سهرة أو إلى مطعم, أو ما شابه, لدرجة شعرت معها بأن أيام الأسبوع ما هي إلا أياما يتم فيها التحضير الرتيب والمعتاد ليوم الواقعة اللعينة !

صار الذهاب لمعهد اللغة مهمة يومية لعصام, تتيح لي وله أن نلتقي كل يوم وأن نتحدث, بحيث أني بدأت أشعر بالأمان مع هذا الرجل, بعد أن كنت أظن أني اشتهيه فقط, لكني رغم هذا الشعور الذي بدأ يتأكد بداخلي نحوه, إلا أني كنت في نفس الوقت أشعر نحوه بامتعاض ما, وذلك بسبب انه يقوم بهذا العمل, كجزء من مهنته أو عمله مع زوجي, كنت أتمنى بالطبع لو أنه كان يهتم بي بدافع الإعجاب الشخصي بي, فقد كنت متأكدة منذ أول لحظة رأيته فيها بأني معجبة به .

أحيانا بعد أن تنتهي حصة الدرس يأخذني عصام إلى النادي الرياضي, حيث يمكنني أن أمارس الرياضة التي أحب, كنت أحب أن أركض قليلا, وأن ألعب بالكرة, كما أنه كان يأخذني إلى المسبح, حين تكون الشمس مشرقة, وما أن أصل حتى أقوم بتغيير ملابسي وأرتدي ملابس السباحة, ومثل سمكة أقفز في الماء, ويظل هو يراقبني عن بعد كما لو كان حارسي الشخصي, ومرة حاولت أن أكتشف ردة فعله ومدى تعلقه بي, فغطست تحت الماء وأخذت نفسا عميقا, "وعملت" حالي عم أغرق, كما الصقر قفز إلى الماء وانتشلني بخفة, كنت بين يديه أشعر بأني طفلة وبسعادة لا توصف, كما لو كنت في حضن أبي .

_ 4 _

هذا اليوم ركضت كثيرا, ولعبت بالكرة و"تمرجحت بالمرجيحة", حتى شعرت بشيء من الإرهاق, لا أدري لماذا شعرت بدافع قوي هذا اليوم لممارسة الرياضة, ربما لأني شعرت بزيادة في الوزن, أو أني بتُّ بدينة شيئا ما, ربما لأني كنت اشعر بالملل ليلة أمس حيث لم أخرج ولم أسهر, وما أن جاء عصام حتى كنت القي بجسدي حتى دون أن أغير ترينج الرياضة إلى المقعد الأمامي الذي بجواره واترك شعري يتطاير مع الريح المندفع بقوة عبر النافذة .

حتى يكتمل نهاري, سمح لي عصام بأن آخذ هذا المساء درسا في قيادة السيارة, يمسك يدي على الستيرينج, ثم على الجير, هيك بنغير وهيك بنمسك المقود, حتى نتحكم بالسيارة, ارتبكت, ربما كنت أشعر بالإرهاق أو أن ملامسة يده لأصابعي أثارت في نفسي رغبة مقهورة نحوه منذ رأيته, كدت يومها أن أصدم سيارته بشجرة, وفي لحظة كان يوقفها إلى جانب الطريق, ولأني خفت, وكان جسدي يرتجف, نزلنا لنشرب عصيرا يروق معه دمنا, نظرت إليه فلاحظت أنه مثار, فقد كان عضوه منتصبا تحت بنطاله !

وفي يوم من الأيام, تركني عصام بالسيارة, ونزل أمام سوبر ماركت كي يأتي له بعلبة سجائر ويأتي لي بعصير وشيكولاتة, بعد دقيقة واحدة, كنت أفتح باب السيارة, وأدور باتجاه الباب الآخر وأجلس على مقعد السائق, ثم أمسك بالمقود, وأدير مفتاح التشغيل, كانت السيارة أتوماتيك فما أن أنزلت الهاند بريك, حتى تحركت, لم ينتابني الخوف, بل سرت بها بهدوء مسافة خمسين مترا, وما أن لمحني عصام حتى جاء مسرعا, ولم ينبس بكلمة واحدة, لكنه اخبر زوجي, الذي جاء بالمساء, ولم يقل شيئا هو الآخر, لكنه فتح يده وقدم لي مفاتيحا, وقال :

نفسك تسوقي سيارة, شبيك لبيك, سمير بين ايديك, اتفقت مع عصام بكرة ياخدك على مدرسة تعليم السواقة, وهي مفاتيح سيارتك, آخر موديل وعلى الزيرو .

ما كان اقتراح أن أتعلم السواقة ولا كانت هدية السيارة مجانا, ففي اللحظة التي كانت يده تقدم لي مفاتيحها, كانت يده الأخرى تطوق خصري وتشدني إليه بقوة, وبسرعة يقوم بنزع قميصه وتعرية صدري, ثم يلتهمني بكل شراهة لدرجة أنه لم ينتظر أن نفعل الواجب على السرير, فقد حدث الأمر على الأريكة هذه المرة, ودون أن أقوى على الحصول على مناديل الورق لأمسح دموعي التي كانت تنداح من بين جفني متزامنة مع مائه الذي كان ينسكب بين رجلي .

_ 5 _

الجو دافيء والشمس مشرقة, وكعادته كل مرة يفاجئني بمكان مختلف نحتفل فيه بعيد ميلادي, هذه المرة كان قد حجز في صالة أفراح شرقية, فيها الفتيات والشبان الذين يقومون على خدمتنا يرتدون ملابس شرقية مزركشة, بأيديهم آلات موسيقية فيما الفتيات يتمايلن بالرقص كما لو كن فتيات شهريار .

هو هكذا زوجي أحسه أحيانا كما لو كان يخبيء شهريار بداخله, لكنه لا يجرؤ على إظهاره, لما فيه من قدر كبير من الجبن والتردد, نظرت إليه وهو يتأبط ذراعي, بالكاد كان طولي, تلمع صلعته حين تسقط عليها أشعة الضوء الملونة فتثير ألوان الضوء عليها الضحك, كما أنه كان ممتلئا, بطيء الحركة, جسده حين يتعرى أمامي يبدو لي كما لو كان كيسا من أرز .

لو كان يعنيني لكنت أجبرته أن يذهب للجيم ولا يخرج منه إلا بشكل وقوام مختلف, يبدو قريبا _على الأقل_ من شكل مدير مكتبه عصام, الذي على عكس سمير كان طويل القامة, رشيقا,اسمر, بشعر كثيف .

كان الجو ساحرا, وأنا كنت كما لو أني عروس, يا لها من "وقعة" كل قرش يصرفه علي, أدفع ثمنه إغتصابا, وكل مرة يضاجعني فيها تبدو لي كما لو كانت أول مرة يفض فيها بكارتي بقسوة وفجاجة .

كانت ليزا موجودة بالحفل, بالطبع, وكل موظفيه, جمعت هدايا عديدة, لم اهتم لأمرها, لكن أجمل لحظة كانت تلك التي بدأ فيها الرقص والاحتفال .

_ 6 _

بعد ثلاثة شهور فقط, كانت تدرك طبيعة المشكلة في كندا, من حيث هي دولة كبيرة المساحة, تبلغ مساحتها نحو عشرة مليون كم 2, وتمتد من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهاديء, وهي ثاني اكبر دولة في العالم من حيث المساحة, بعد روسيا وقبل الولايات المتحدة, وتعتبر مساحتها أقل قليلا من مساحة الوطن العربي كله . لكنها, ربما بحكم أن عدد سكانها قليل بالنسبة لمساحتها, حيث يبلغ عدد سكانها نحو ثلاثين مليون نسمة, ورغم أنه يحسب لها أنها دولة فدرالية وثنائية اللغة والثقافة, إلا أنه يمكن للمرء أن يختصر كل كندا في مقاطعتي كيبيك, حيث تقيم نشوى في اكبر مدن المقاطعة أو عاصمة الإقليم الفرنسي, وهي مونتريال, وأونتاريو وهو الإقليم الانجليزي الرئيسي حيث توجد العاصمة أوتاوا ومدينة تورنتو .

وهكذا فإن حركة التنقل لمن يقيم في مونتريال تكاد تنحصر داخل كندا في مثلث مونتريال, أوتاوا, تورنتو, فمن يريد انجاز معاملة لها علاقة بالجنسية أو الإقامة يذهب للعاصمة السياسية التي تبعد عن مونتريال مسافة مائتي كيلو متر, أو مسافة ساعتين بالسيارة, ومن يحتاج انجاز معاملة تجارية يذهب لتورنتو التي تبعد نحو 550 كيلو مترا عن مونتريال أو نحو 5 ساعات ونصف بالسيارة .

خلال ثلاثة شهور, تعرفت على كل المطاعم والمحلات التجارية والشوارع في مونتريال, وذهبت بالطبع أكثر من مرة إلى أوتاوا حيث يمكن الذهاب والعودة في ليلة واحدة, والى تورنتو حيث يحتاج الأمر عادة إلى قضاء ليلة أو أكثر في المدينة, لأن رحلة الذهاب والعودة تحتاج أكثر من أحد عشر ساعة سفر بالسيارة .

ثلاثة شهور كانت كافية لنشوى حتى تبدأ الشعور بالملل, فكندا ليست على غرار الدول الأوروبية حيث المسافات قصيرة نسبيا بين المدن الكبيرة والعواصم, وفي أوروبا يمكن للمرء أن يعيش سنوات دون أن يشعر بالملل فقد صار بإمكانه أن يتجول عبر دول الاتحاد بكل بساطة, أينما أراد ورغب في أكثر من ثلاثين دولة, كما أن كندا ليست حتى مثل أمريكا الجنوبية التي تكاد تشبه الاتحاد الأوروبي حيث يمكن للمرء أن ينتقل من عاصمة لأخرى بين الدول المتجاورة, خلال ساعة واحدة فقط, وحتى أنها ليست مثل جارتها الجنوبية الولايات المتحدة .

الولايات المتحدة أصغر جغرافيا بقليل من كندا, لكنها تضم خمسين ولاية, ومئات المدن فيها, كما أن معظم الشمال الكندي لا يمكن لأي احد أن يفكر في زيارته نظرا لأنه قطب متجمد شمالي, كذلك الغرب الكندي, فضلا عن أنه بعيد جدا, لا يمكن الوصول إليه إلا بالطائرة, فهو ليس غنيا ولا مهما كما هو حال الغرب الأمريكي حيث توجد العاصمة واشنطن في الغرب وبعض الولايات المهمة جدا, مثل كاليفورنيا .

رغبت بشدة في أن تذهب بعد أن سافرت عدة مرات من مونتريال إلى تورنتو وأوتاوا, بأن تحوّل مثلث الحركة والتنقل إلى مربع يشمل إضافة إلى مونتريال , أوتاوا , تورنتو, مدينة نيويورك الأمريكية .

حين رأت تمثال الحرية, ودّت لو تصعد إليه وتقبله, ولم تدر لم كانت تطيل النظر بوجه المرأة المجسدة في التمثال, أخرجت المرآة من حقيبتها اليدوية, وأخذت تنظر إلى وجهها تارة والى وجه المرأة المجسدة بالتمثال, تذكرت جليل, آه أيها الفتى البهي, أليست هذه أجمل من تمثالك الذي تقول بأن مايكل أنجلو قد نحته, دارت في المكتبات المجاورة واشترت أكثر من صورة لتمثال الحرية, ثم ذهبت إلى أستوديو قريب والتقطت أكثر من صورة لها .

أكثرت من المقارنة والتدقيق بين وجه امرأة الحرية وبين صورتها, رأت بأن هناك تطابقا, إنها هي امرأة الحرية بذاتها, ركضت تدور حول الميدان وهي تغني وترقص كما لو كانت مجنونة _ رسمي _ . كل ما كان ينقصها هو أن تحمل الشعلة, بحثت عن شعلة وعادت بها إلى الأستوديو وطلبت منه أن يصورها وهي تحمل الشعلة .

ثم انتبهت إلى أن هناك فارقا ما زال قائما, يئست ثم قررت أن تعود في اليوم التالي, حيث سارعت منذ الصباح إلى الذهاب لمحل التراث الفلسطيني واشترت ثوبا فلاحيا مزركشا بالغ الجمال ينتسب لرام الله, ارتدته وحملت الشعلة والتقطت عدة صور, كانت جميلة جدا, بدت كما لو كانت مانيكان, لا بل هي تمثال حرية فلسطيني !

ملل ملل ملل, لا شيء سوى الملل وما من شيء سوى الفراغ, تنام كثيرا لتقتل الوقت, وحين تصحو لا يكون هناك ما عليها أن تفعله سوى أن تنتظر زوجا لا تحبه, هو أشبه بسجّان, يأخذها

تحت الحراسة المشددة إلى المطعم أو إلى السوق, حيث محلات الملابس والأحذية, بدأت في مخالطة الخدم, حينها تدخل وقال : ما بيصير, هذول خدامين وأنت مدام, لو حدا اجى وشافك راح يحكي أبصر من وين هذا سمير جايب مرته .

كذلك فإن عالم الشغَّالين بسيط وغبي وساذج, ما بعرفوا شي ولا فيهم يحكوا عن شي, أصابها اليأس والإحباط, لا شيء بيدها يمكنه أن يبدد الملل .

تشعر بالصداع , فتتناول البنادول, كل يوم تقريبا تأخذ أكثر من حبة بانادول .

بدأت تحتدّ وبدأت تظهر عليها علامات العصبية والنرفزة لأقل سبب, خاصة حين يحضر سمير, تشعر في أعماقها أنه هو المسئول عن كل ما هي فيه من عذاب .

عاد إليها يوما بباقة ورد, ورغم أنها تحب الورد, إلا أنها أخذتها من يده وألقت بها بعيدا, ثم قامت بعد دقائق بلم الوردات وذهبت إلى الحديقة تحاول أن تزرعها, الورد جميل جدا, لكن ليس مقصوفا, جمال الورد في أن يكون مزروعا, وحين تقطفه يتحول إلى جثة ميتة, تشبهها, هي كانت وردة قبل سنوات, يا دوب فتَّحت حتى أجى الأخ وقطفها, ودفع ثمنها جواز سفر وإقامة في قصر ومصروف يومي وهدايا .

منذ ذلك اليوم, فوجيء بها تسأله عن المستنبتات بالمدينة, وحين أرسلها مع عصام, اشترت كل بذور الورد التي تحبها, ثم عادت إلى حديقة القصر, تنكش بالمجرفة " والطورية " الأرض وتزرع بذور الورود, التي ما أن بدأت تنبت حتى صارت رفيقها اليومي الذي تبوح له بكل همومها وتشكو إليه كل عذاباتها .

صارت أقل عصبية وأكثر هدوءا, وفي يوم جاء سمير ومعه قفص به عصافير تغرد وتزقزق بأجمل ما يكون من أصوات ناعمة تدخل الروح قبل القلب .

تأملتها بهدوء, قبّلت العصافير, ثم فتحت لها الباب وأطلقتها في الفضاء .

حرام عليك, حلاوة العصفور على الشجرة, مو بقفص, انتو ما بتعرفوا غير تعذبوا الكائنات الحية, ما بتعرفوا غير تحبسوا الناس والعصافير, القطط والكلاب, مقابل اللقمة بتاخدوا منهم أغلى ما عندهم : حريتهم .

استغرب كثيرا مما فعلته, وكان يستمع إليها مشدوها, ولم يقم بأي رد فعل سوى, أن صفق بيديه, ودخل إلى البيت, غير ثيابه, ونام .

منذ الصباح وأنا أشعر بانقباض, وحدتي مستمرة للعام الخامس على التوالي, اشعر أحيانا كأني عارضة أزياء أو حتى "مانيكان" في معرض ملابس, مجرد عروسة من شمع, وقد تأكد

شعوري حين قمت بإعداد قهوتي الصباحية, التي عادة ما أعدها بنفسي, بعد أن يخرج سمير, وأصحو بعد خروجه بنحو ساعتين, حين نسيت الغلّاية وفارت القهوة حتى لم يبق منها شيء فاضطررت لأن أملأها مرة ثانية, وما كدت أرتشف من القهوة أول رشفة حتى كان اتصال هاتفي يأتيني من القدس, صحيح أن أبي وأمي طمأناني عليهما, لكن أخبار فلسطين مقلقة, يقولون بأن هناك حربا بيننا وبين الإسرائيليين .

شعرت بقلق وتوتر, وما هي إلا لحظات وكنت ارتدي ثيابي, ثم انزل إلى الكاراج, أفتح باب سيارتي, أدير المحرك وأنطلق . لحظات وكنت في مقر الشركة, كنت أنوي أن اطلب من سمير أن يحجز لي إلى القدس, لأمضي لي أسبوعا أو أسبوعين أغير جوا وأطمئن على أبي وأمي, ثم أعود, لم يدر ببالي مطلقا, ما سأراه بأم عيني, بعد قليل, لأنه لم يخطر ببالي أبدا, كما أن ما كان ينتابني من قلق وتوتر لم يسمحا لي بأن أتوقع شيئا مما رأته عيناي .

لم تكن ليزا في مكتبها, الذي هو عادة بمثابة ممر إجباري لمكتب زوجي, لم أهتم بالأمر, بل ربما كان ذلك أفضل لي, فأنا لا أرتاح لهذه الفتاة, فتحت باب مكتب سمير, لأفاجأ بليزا في حضنه, يقوم بتقبيلها بفمها, لحظة بدت كأنها عام, لم أدر ماذا أفعل, لم أقل شيئا, بل أدرت ظهري وخرجت من حيث دخلت وعدت إلى البيت .

الصدمة التي أحدثها مشهد سمير وهو يقبل ليزا, تحدث في نفسها غضبا لا حدود له وفي جسدها رغبة عارمة في الانتقام, كيف له هو أن يمارس الجنس مع أخرى, مع أنه يستمتع بها, وإن كان لم يعرف بعد _ ولن يعرف أبدا _ معنى اللذة الحقيقية, وذلك لأنها لا تشاركه فيها, ألم يكن الأجدى أن تفعل هي هذا, وهي التي منذ خمس سنوات زواج, ما زالت لم تعرف لذة الممارسة الحميمية, بل على العكس من ذلك ارتبطت بذهنها وأعصابها على أنها عقوبة مدوية, فهي كل أسبوع تقريبا تتعرض للاغتصاب الشرعي, تتقطع أعصابها وتشعر كأن بلاطة وقعت على صدرها حين يكون فوقها وهو يرتفع وينخفض ثم يبدأ لهاثه بالارتفاع إلى أن يشهق كما لو كان يلفظ أنفاسه الأخيرة لحظة يبصق في فرجها .

لم تعرف ماذا تفعل حتى تنسى ذلك المشهد, وحتى تكنسه من مخيلتها كليا, فرغم كل الذي شربته ودخنته ما زالت تراهما متحاضنين يمص أحدهما شفتي الآخر .

فتحت التلفجن, ثم بدأت تقلب محطاته إلى أن رأت أمرا جللا, لم تقو معه, لا على إطفاء الجهاز ولا على إغلاق عينيها, حتى ظنت أنها توقفت عن الترميش, كانت طائرات تصطدم ببرج التوأم في نيويورك, مركز التجارة العالمية, ذاك الذي سافرت من أجله للمدينة الأمريكية خصيصا لتشتري كل ما تحتاج إليه من ملابس هذا الصيف .

حين عاد ذلك المساء, حاول أن يبدو الأمر عاديا, وأنا لم أثر في وجهه, ولم افتح الموضوع, فقط بدأ الحديث قائلا بعد أن وضع هدية مغلفة, حين فتحتها في اليوم التالي, كانت عبارة عن خاتم ألماس باهظ الثمن, والغريب انه لم يقم بمحاولة أخذ ثمن الهدية هذه المرة, سألني, بعد أن وضعت الهدية جانبا:

أنت جيت الشركة اليوم, وكنت بدك شي ومجرد دخلت طلعت, فيك تفسري لي, ليش دخلت وطلعت بلحظة أولا, وثانيا ايش كان بدك ؟ !

أجبته بهدوء : ما حبيت أزعجك بلحظة خاصة, لو كان عندي خبر كنت ستنيت برة المكتب, بعدين أنا جيت كان بدي تحجز لي عشان أروح أزور البلاد أسبوع زمان .

رد بالقول : بس هيك, غالي والطلب رخيص بكرة بحجز لك, وليش بكرة هلا

ثم تناول الهاتف واتصل بخطوط الطيران ليحجز لي .

خطفت سماعة الهاتف من يده , وقلت له:

ما في داعي, لا تغلب حالك, ما عاد بدي, ما عادت لي رغبة أروح البلاد .

أستغرب من ردة فعلي, وقال :

أوعك تكوني فكرت إنه في بيني وبين ليزا شي, لا سمح الله, هي كانت في حالة نفسية سيئة, أمها كانت مريضة كتير وكانت تبكي فأنا حضنتها لأهديها, هاي كل القصة .

وجدتها فرصة فقلت :

سمير, طلقني, خلص بيكفي نظل نكذب على بعض .

_ 9 _

من يوم ما كمتشه مع ليزا, بدأت أتساءل لم يسافر وحده دوني, دائما إلى كل بلاد الدنيا, وحين أسأله يقول بأن كل سفرياته لها علاقة بالشغل وعقد الصفقات, ومن غير المعقول أن يأخذني معه, لكن لو حبيت _ حبيبتي _ هكذا كان يخاطبني بكل بساطة, تسافري على أي بلد بالدنيا إحك لي وين بدك تروحي باخدك ولو ما كنت فاضي سافري لحالك أو ببعت معك عصام .

حتى يرضيني بعد واقعته مع ليزا, جاءني بعد وقت ليخبرني بأنه يخطط لرحلة أكون معه فيها إلى دبي, يعرف أني مولعة بالشرق ويقولون بأن دبي مدينة ساحرة, فيها كل ثقافات الدنيا, مدينة منفتحة ومتحررة, هي نيويورك الشرق, وفيها كل شي, يمكنك أن ترى كل الأعراق والبشر, كما يمكنك أن ترى كل مطاعم الدنيا من الصيني للهندي, هناك بائعات الهوى الروسيات والأفريقيات في الشوارع, وهناك المساجد والملاهي تتجاور, فكل إنسان يجد بدبي ما يريده أيا كان معتقده أو جنسيته . دبي مدينة الحرية في الشرق, فقط ينقصها تمثال الحرية, ودّت لو كان بمقدورها أن تصنع من تمثال الحرية عشرين تمثالا, لتضع في كل عاصمة عربية واحدا, تبدأها برام الله , كذلك _ خاطبت نفسها قائلة : بإمكاني ازور أخي وأختي .

الرحلة بالطائرة من مونتريال إلى دبي, تستمر مدة خمس عشرة ساعة, وهذا وقت طويل, لذا لابد من اختيار الرحلة بعناية, لهذا فضلت حين سألها, أن تكون الرحلة عبر باريس, وليس عبر لندن ولا عبر ميونيخ, وبطيران الأمارات وليس عبر الخطوط الكندية, شعرت بأنها تشتاق للشرق جدا, للغة العربية تملأ الدنيا حولها, ترغب في أن ترى الصخب والفوضى, الأولاد في

الشوارع والباعة الجوالين, اشتاقت للكعك بسمسم, للحلقوم, ولشعر البنات, شعرت للحظة بأنها قد كبرت كثيرا, وبأن الوقت قد مرَّ بها طويلا دون أن تدري .

كما لو كانت الرحلة من مونتريال إلى دبي, رحلة العودة بالنسبة لها, فهي قبل خمس سنوات, بدأت حياتها بالتحول من الشرق إلى الغرب عبر رحلة بالطائرة من القدس إلى باريس, الآن تعود _ وإن كان في زيارة, لا لتستقر مجددا في الشرق, بل لتمضي أياما فقط, خطرت ببالها فكرة أن تطلب منه أن يكملا الرحلة إلى القدس بعد أن ينجز عمله في دبي .

رتبت حقيبتي بنفسي, وكنت اخطط أن اجلب معي من هناك كل أنواع البهارات, كذلك الكثير من الإكسسوارات الشرقية . كنت أظن أننا سنمضي أسبوعا معا, نملأه بالسهر والتجول في الأسواق, كذلك في اكتشاف معالم الدولة العربية الحديثة, المتنوعة من حيث هي الدولة الوحيدة في الشرق الأوسط المتزمت التي تتبع نظاما فدراليا بين إماراتها السبع, كذلك الدولة التي بها مواطنون من أكثر من مئة دولة, لوهلة رأت دبي تشبهها من حيث أنها خليط بين الشرق والغرب, تشوقت للسفر إلى دبي الجسر التجاري أيضا الذي يصل الصين واليابان بأوروبا وأمريكا تجاريا .

_ 10 _

بدأت الرحلة بأن خلدت إلى النوم, قررت أن تنام كل المسافة التي تقطعها الطائرة فوق المحيط الأطلسي, وأن تصحو حين تصل باريس, وهكذا كان, وحين صحت من إغفاءتها ودّت لو أنه كان بمقدورها أن تمكث ليلة في باريس .

تعرفت على كل المضيفات العربيات بالطائرة, وكانت تسألهن عن عناوين أشهر محلات البهارات في دبي, عن أهم المولات, محلات الملابس الشعبية, عن أهم معالم المدينة, حتى أخذت فكرة عن دبي وعناوين كل ما تحتاجه فيها .

من المطار إلى برج العرب, دهشت لهذا الفندق الضخم الذي ذكرني بإيمباير ستييت في نيويورك, إرتحنا قليلا, وحين حل المساء, ذهبنا إلى المطعم لتناول طعام العشاء, كانت الأسماك شهية جدا, وأنا أحب الجمبري, أكلت ليلتها كما لم آكل من قبل, حتى شعرت بأن وجهي صار يشع ضوءا, لم يدهشني الجمبري وحسب, بل استمعت ليلتها للمغنية الإماراتية أحلام تغني :

قول عني ما تقول
صوبي كم صعب الوصول
واللي ما يطول العنب
حامضٍ عنه يقول

الهوى حبٍ و كيف
ما يجي بخنجر و سيف

قلتها بكل اعتزاز
مالك بقلبي قبول

إنت في وهم و خيال
تبني قصرٍ من رمال
تدري ليه هب الشمال
ينجلي الغيم و يزول

في النهايه و الختام
راح تعلن الانهزام
الفعل غير الكلام
صارع أمواج السيول

https://www.youtube.com/watch?v=IKLiA6VCiM8

تأملت الكلمات جيدا, فشعرت كما لو أن أحلام الشماسي تقول بلسانها ما تود أن تقوله لهذا الرجل الذي هو ليس إلا سجّانها منذ نحو خمس أو ست سنوات, وهي معه كما لو كانت مرافقة أو ملحقة, لا أحد يعرفها إلا بانتسابها إليه: زوجة سمير, أما أحلام الشماسي هذه فتظهر قوة لا حدود لها واعتزازا لا مثيل له, هي معروفة بشخصها وغنائها ولا أحد يعرف زوجها, الذي ربما كان هو الذي ينسب لها فيقول من يراه : هذا زوج أحلام .

فوجئت بأن زوجي جاء من أجل عمل له علاقة بشركته, فقد كان ينوي أن يفتتح فرعا لشركة الاستيراد والتصدير خاصته, وليس هناك أفضل من دبي كمحطة, تمر عبرها بضائع الصين المتعددة والرخيصة جدا إلى كندا .

أخذني معه إلى شركة يملكها شيوخ إماراتيون, حاول جاهدا أن يقنعهم بشراكته, لكنهم لم يتفقوا, فكان أن تركني معهم ساعة كاملة, معتقدا أنه يمكنني أن أنجح في إقناعهم, يومها زاد كرهي له, فقد أضيف لكراهيتي له سبب آخر .

عادت من الأمارات بكراهية مضاعفة لسمير وبحب واهتمام بأحلام, التي صارت تحرص على تتبع أخبارها وسماع أغانيها, واحدة إثر أخرى, إلى أن جاء برنامج آراب أيدول في موسمه الثاني, وكان ذلك بعد أكثر من عشر سنين على زيارتها لدبي, وكانت برام الله التي جنّ جنونها في ذلك العام بحصول الفلسطيني محمد عساف على لقب البرنامج "محبوب العرب", أما هي فلم تهتم إلا بوجود أحلام ضمن لجنة التحكيم, ومن ثم بشدو الفتاة المغربية سلمى رشيد بأغنية أحلام :

ناويلك على نية

ناويلك على نيه بس أنت اصبر شويه
إذا ما أعلقك فيني وهواك يصير في أيديه

والله لا اشغل أفكارك وأشعل بالهوى نارك
واسكن قلبي بدارك وأعلمك الرومانسيه

ناويلك على نيه بس أنت اصبر شويه
إذا ما أعلقك فيني وهواك يصير في أيديه

ودي اسمع أنا احبك بصدق يقولها قلبك
وأشوف الشوق يلعبك في الروحة والجيه

ناويلك على نيه بس أنت اصبر شويه
إذا ما أعلقك فيني وهواك يصير في أيديه

https://www.youtube.com/watch?v=01K9jjcMDdg

لم يوافق على أن نحول رحلة العودة إلى القدس, متعللا, بأن لديه عملا من الضروري جدا أن يتابعه بنفسه بعد يومين في مونتريال, لكنه وعدها بأن يسافرا معا لزيارة الأهل في البلاد, في نهاية العام, وأن يمضيا أعياد رأس النسة هناك في البلاد المقدسة .

_ 11 _

في نهاية ذلك العالم, العالم كله كان يتحدث عن بيت لحم العام 2000, وكانت هي قد نسيت أنه وعدها في ختام رحلتهما لدبي بزيارة فلسطين في نهاية العام, ولم تتذكر ذلك الوعد إلا حين فوجئت به, يسألها إن كانت اشتاقت للقدس, أو أنها تحب أن تزور البلاد, استغربت جدا, فهو خلال خمس سنوات مضت, لم يسافر بها إلى البلد إلا مرة واحدة, ومرة أخرى سافرت وحدها, ظنت أنه يريد أن يصالحها أو أن يتقرب منها, بعد أن لاحظ إزدياد الجفاء بينهما يوما بعد يوم, أو أن يخفف من وقع ما حدث بينه وبين ليزا, قبل بضعة شهور, خاصة أنها عقب تلك الواقعة امتنعت عنه شهرا, ولم يحدث اتصال حميمي بينهما إلا بعد سهرة نسيت فيها اسمها, شربت نبيذا جعلها تراه في آخر الليل كما لو كان جليل أو حتى عصام !

كانت بيت لحم ورام الله والقدس أجمل من عرائس الجنة في أيام أعياد الألفية الثالثة, أمضت أسبوعين لم تر مثلهما في حياتها, شعرت بأن القدس وبيت لحم ما هما إلا مركز هذا العالم كله, بل ربما مركز الكون بأسره, فقط فوجئت به يمضي الوقت كما لو كان دليلا سياحيا لجروبات كندية جاءت للاحتفال بأعياد الكريسماس ورأس السنة الميلادية حيث ولد السيد المسيح, هكذا كانت المناسبة بالنسبة لزوجها, الذي لم يفوتها, وتذكر حينها أنه فلسطيني !

_ 12 _

بعد ذلك بنحو عامين لاحظت أنه بدأ يحضّر نفسه للسفر إلى البرازيل, فتساءلت بينها وبين نفسها, لم لم يطلب منها أن تحضر نفسها لترافقه في رحلته إلى البرازيل .

أكيد أنه بدو ياخد راحته هالمرة, أكيد إنه بيفكر في البرازيليات, خليّه يعمل شو ما بده, في الحقيقة هي لا تشعر بأنه لها أو أنه يخصها, تشعر نحوه كما لو كان أي رجل تصادفه بائعة هوى في مكان ما, وهي كانت ترى ذاتها ليست إلا عاهرة تمنحه جسدها مقابل ما منحها إياه من جنسية كندية, ثم من معيشة في قصر, ومصروف وهدايا .

أحست بقليل من الغضب بداخلها, فالرجل يقول عن المرأة عاهرة, حين يمارس معها الجنس برغبته هو, دون رغبتها, بدليل أنها تأخذ مقابل ذلك نقودا, مقابل أن تمنحه المتعة دون أن تحصل هي عليها, أي من خلال ممارسة غير متكافئة أو ندية, من خلال ممارسة يقوم فيها طرف بشراء المتعة من الطرف الآخر الذي يقوم ببيعها, فماذا لو افترضنا العكس, أي أن تقوم امرأة بشراء المتعة من رجل يعجبها, مقابل أن تمنحه مالا, ألن يكون هو عاهرا وهي ليست كذلك, أم أن المجتمع الذكوري المنحاز للرجل "جندريا" سيكون له رأي آخر .

كان بجوارها على السرير ممدا شبه عار, ينتظر لحظة أن تنتهي من وضع بعض أحمر الشفاه ورش العطر على جسدها وارتداء واحد من قمصان النوم المثيرة التي يجلبها لها دائما, حين يعود من السفر, لتضاعف متعته, وما أن انتهت, وتمددت إلى جواره, وقبل أن تبدأ المعركة, تناولت كوب الماء, ليساعدها على بلع حبوب منع الحمل, رآها, فمسك يدها , وقال :

بلا منها, ليش حبوب منع الحمل, صار إلنا سبع سنين يا نشوى, ما بدك نجيب أولاد .

بعد بكير حبيبي, أنا بعدني صغيرة, خلينا نتمتع بحياتنا, ملحقين على الواع والويع, على شو مستعجلين, أنا يا دوب وصلت ال25 سنة, نص صاحباتي بعدهن ما تجوزوا .

_ 13 _

لابد أن سمير الآن قد أحاط نفسه بعدد من راقصات السامبا, الخلاسيات الفقيرات اللواتي من السهل عليه أن يلتقطهن بعد أن يرين دولاراته, هو رجل اشتراها بمكانته الاجتماعية, وجعل منها مجرد إيقونة يضعها على صدره, وحين يحتاج إلى بعض المتعة يعود للبيت, فيقوم بتعريتها من ملابسها, والدفع بدودته المقيتة إلى داخلها, تماما كما يقوم بإشعال سيجارة أو بشرب كأس من النبيذ, ليزيل عن نفسه التوتر جراء عناء العمل, أو ليحقق لها قليلا من المتعة, أما هي فمفروض عليها أن تظل بالبيت تنتظر مغتصبها المقيم, الذي معه يبدو المغتصب العابر أو المغتصب لمرة واحدة مجرد هاو, وربما لهذا السبب يلجأ البعض إلى تزويج الفتاة المغتصبة

من مغتصبها, لينتهي الأمر حتى دون اعتقاله, بل قل دون قتلها بدافع الشرف . هو المغتصب الدائم ولعدد غير محدود من المرات, بيده هدية هي بمثابة مسهل للأمر, كما لو كانت كريما يوضع على العضو التناسلي لتسهيل الإدخال الفج, المفاجيء والقاسي .

تصاعد الغضب بداخلها, فقامت على الفور بالاتصال بعصام وطلبت منه أن يحضر لاصطحابها إلى بار .

تناولت الطعام بشراهة مع عصام, وكانت أول مرة لها تطلب فيها نبيذا, شربت وأكلت وضحكت كثيرا, حتى أنها خرجت إلى "البيست" ورقصت ولعبت بشعرها, كما لو كانت "بنت ليل" محترفة, وحين وصل بها الأمر, إلى أن رجليها بدأتا في الاصطكاك, أخذها عصام وعاد بها إلى المنزل .

اضطر إلى أن يمسك بها من خاصرتها حتى تستند عليه, ذلك أن قدرتها على التركيز لم تعد قائمة, ثم أن يدخلها إلى البيت وحتى إلى غرفة النوم .

طلبت منه أن ينتظر قليلا حتى تقوم بتغيير ثيابها, فجلس على حافة السرير ينتظرها إلى أن غيرت ملابسها وارتدت قميص النوم النهدي المثير, كان داخلها نارا تشتعل, فهي منذ رأته ونظرت إلى ما بين رجليه في تلك اللحظة البعيدة رأت بأن لديه ما يشبه ذاك الذي كان أول مرة تراه فيه, ورغبت به حد الثمالة, إنحنت عليه وطوقته ووضعت شفتيها على فمه, تريد تقبيله بعنف .

لطمها على وجهها, ثم حملها ووضعها بالسرير, كما لو كانت طفلة مشاغبة ارتكبت خطأ, تستحق عليه عقابا , ثم غادر .

_ 14 _

جاء سمير منشرح البال, بدت خطواته وهو يتقدم عبر درجات المدخل, كما لو أنه قد ربح صفقة مهمة, كان يلوح على غير عادته, بإسوارة ذهبية تلمع في الشمس, ما أن رأته ورأت الإسوارة في يده, لم تستبشر خيرا, فالهدية دليل على أنه "ناوي له على نية ", ضحكت في سرها, فقد تذكرت أن اليوم إنما هو منتصف الشهر, وهي منذ يوم أمس وهي تضع "الحافظة" التي عادة ما تضعها قبل فترة الشبق, أي قبل مجيء الدورة الشهرية بيومين, لكن الغريب في الأمر هو أنه لم يمض أسبوع على ممارستهما السابقة, فكيف يتجرأ سمير ويفكر _ مجرد أن يفكر _ في كسر القاعدة التي فرضتها عليه منذ سبع سنين ؟ !

تحاول دائما أن تحتاط بشكل مضاعف, في فترة الشبق التي تسبق العادة الشهرية, لأنها هي أيضا تشعر برغبة جنسية جارفة, لذا فإنها تخاف جدا, من أن تحدث الكارثة, التي ستعني نهاية حلمها بأن تكون يوما ما _ ولو بآخر يوم في عمرها _ حرة, سيدة نفسها, هي التي تختار

الرجل الذي ترغب فيه, لا أن يكون هو الذي يختارها, وتختاره بعناية وبهدف تعرفه جيدا, ولا تحيد عنه, وهو أن يشبعها وأن يمتّعها, لا أن تشبعه هي أو أن تكون أداة متعته !

يومان مرا, تنزع الحفاظة كما تضعها, بدأ الشك يساورها, اتصلت بالطبيب, أخبرها أن لا تقلق وأنه يحدث أحيانا أن تضطرب الدورة, فتتأخر أو يتغير موعدها, ولمزيد من الاطمئنان طلب منها أن تزوره في عيادته حتى يجري عليها الفحص ويعرف السبب .

في الحقيقة, هي مطمئنة, فهي تتناول حبوب منع الحمل بشكل مواظب, وفي فترة الشبق تتناول حبتين, فما الذي حدث, مرت سبع سنوات, تحتمل الاغتصاب كل أسبوع, وتنتظر أن يجيء اليوم المناسب, هي في حقيقة الأمر لم تعرف كيف احتملت كل هذه السنين, ولو كان أحد قد أخبرها بأنها ستبقى مع سمير كل هذه السنين لربما انتحرت منذ أول ليلة, لا تدري كيف مرت كل هذه السنين, بالطبع حاولت أكثر من مرة أن تجد حلا, فكرت بالعودة بالألف دولار التي كان أبوها أعطاها إياها ليلة غادرت القدس إلى هذا السجن الزوجي, وفكرت في الانتحار, وفكرت في أن تصاحب رجلا آخر, وطلبت منه الطلاق أكثر من مرة, ثم بإلحاح وبعين قوية قبل عامين حين ضبطته في حضن سكرتيرته ليزا بمكتبه, لكن بما أنها احتملت كل هذه السنين, فلِمَ تخرج من المولد من دون حمص؟ الآن, معها الجنسية الكندية, ولو وافق على الطلاق فإنها ستتحول من ثاني يوم إلى مليونيرة, لأن القانون هنا يمنحها نصف ثروته, لا بد أن تفكر في طريقة تجبره على أن يطلقها, وأن يدفع لها نصف ثروته .

ومن يدري, رب ضارة نافعة, وهي قد صبرت واحتملت كفقير ليس له حيلة, فقيرة هي وأبوها وأمها وكل أهلها, وكيف لفقير في هذا الزمان أن ينال حريته, كيف له أن لا يخضع لشروط ورغبات من يقدم له لقمة الخبز, كيف ؟ !

كما أنها الآن لم تعد مراهقة في الثامنة عشرة من عمرها, لا تعرف شيئا من الدنيا غير رسائل حب المراهقين, وغير نبض قلب إبن الجيران . خلال سبع سنوات, شافت الحامض والحلو, وخبرت هؤلاء الناس الأثرياء, الذين هم على عكس الفقراء, يحصلون على الملايين بسهولة, فيما يحصل الفقير على الملاليم بعد جهد وكد وتعب .

نعم, تريد الطلاق, لكن لماذا تحصل عليه مجانا, بات من حقها أن تنال التعويض عن كل تلك السنين القاسية, التي عاشتها مع هذا الرجل .

لم تهتم بمظهرها, فهي لا تفكر أصلا في إغواء أو حتى لفت نظر الطبيب, ولو أنه تحرش بها, لصفعته, هي لا تشعر ولا بشكل عابر في الرغبة بمصاحبة أي كندي ولا حتى أي إنسان آخر هنا غير العربي وبالأخص الفلسطيني, لكن توقها للحرية الذي هو بلا حدود, يبقي عليها كما لو كانت ما زالت هي تلك الفتاة التي تجوب أزقة وشوارع القدس العتيقة الضيقة, كل يوم, بعد آخر حصة مدرسية, تواعد الفتيان في عمرها الذي كانوا يمطرونها برسائل الحب والغرام, إلى أن اختطفها من بينهم جميعا ابن الجيران فصار يرافقها في تلك الأزقة يسألها عن المدرسة ويقول لها إنه يحبها, ثم يقبلها في الكنسية بالقدس العتيقة .

فاجأها الطبيب بقوله بأن تأخر العادة الشهرية, كان سببه وجود أعراض حمل, صعقتها المفاجأة .

_ ولكن كيف يا دكتور أنا آخذ حبوب منع الحمل بانتظام .

أجابها ببساطة :

_ ربما تكونين قد نسيت أو أنك أخطأت في تناول حبوب منع الحمل, وبدلا منها تناولت بنادول مثلا .

المهم, صار اللي صار, وحملت نشوى .

يقولون حين تحب المرأة زوجها تنجب له ولدا يشبهها, وحين يحب الرجل زوجته تنجب له بنتا تشبهه, وعلى ذلك فمن المؤكد بأن الذي في بطن نشوى إنما هو بنت, ويستحيل أن يكون ولدا !

عادت إلى البيت وكأن عفريتا قد ركبها, قامت بكسر كل صحون المطبخ, وما أن رأت الطهاة أمامها حتى صرخت فيهم أن يغربوا عن وجهها, وأن لا يظهروا أبدا, فهي لا تريد أن ترى أحدا, دخنت سيجارة, ثم وخلال ساعتين كانت تجهز على علبة السجائر كلها, شربت عددا من علب البيرة, لم تشرب مثله من قبل ولا خلال أسبوع, تدخن وتشرب البيرة, إلى أن شعرت بأن الأرض تدور فيها .

كان من الطبيعي أن يكون الخبر سارا بالنسبة له, فقد ظن بأن وجود إبن بينهما, يمكن أن يجعل من زواجهما _ أخيرا, زواجا ناجحا, لذا فإنه لم يقبل أبدا فكرة أن تجهض نفسها, رغم أنها حاولت أن تقنعه بكل الوسائل, بما في ذلك أهم سلاح لديها وهو سلاح الإغواء, وحين حاولت أن تستعين بصديق, أي بعصام رفض الفكرة هو الآخر .

ثم مع مرور الأيام, عادت ريما لعادتها القديمة, وحين جاءها المخاض, أخذها بنفسه إلى المستشفى, وحين ولدت بنتا, بدا كما لو أنه تفاجأ, فقد كان يفضل لو أن المولود كان ولدا .

_ 15 _

أكثر من مرة طلبت منه الطلاق, وهو لا يقبل, بل يرفض بشدة بالطبع, وأكثر من مرة تذكرت مغلف والدها, وفكرت في أن تذهب لمكتب الطيران وتحجز تذكرة باتجاه واحد إلى القدس, لكن ماذا تفعل في القدس, وهل سيفرح بها أبوها, اللي مش ناقصه هموم, ثم هي ستكون ناشزا, الأفضل لها أن يطلقها, وأن تجعل من تجربة هذا الزواج الفاشلة وراء ظهرها تماما, كملف مغلق لن تفتحه طول حياتها, هي واثقة من أنها ستجبره يوما ما على تطليقها, لكنها لن تنتظر أن تمضي كل شبابها, حتى يتركها بنفسه حين تغادرها جاذبيتها وأنوثتها, ورغم أنها قد فرضت عليه شيئا مما يتيح لها أن تلتقط أنفاسها ومما يجعل من حياتها أقل معاناة, بعد أن عوّدته على ممارسة الجنس فقط بمعدل مرة واحدة في الأسبوع, إلا أن المشكلة هي أنها تراه يغتصبها كل مرة, وأنها ليست أكثر من عاهرة, تمارس الجنس مع رجل مقابل ما يمنحها إياه من هدايا ومن إقامة ومن ملابس ومأكل, لتشبع شهوته, فيما هي لم تعرف اللذة يوما, والممارسة الحميمة التي

هي أصلا من أجل متعة طرفيها, حين تمارسها معه تتحول إلى ألم فقط يجعلها تبكي طوال اليوم التالي .

بعد عام تكرر الأمر مجددا, وولدت نشوى ابنتها الثانية, الأمر الذي أثقل عليها, لكنها ومع وجود مولودة إلى جانب طفلة لم تتجاوز العام من عمرها بعد, ورغم إحضار سمير لمربية للبنت الأولى, إلا أن وجود المولودة, كذلك قيام نشوى بإرضاعها, أبعد عنها ذلك الواجب الزوجي الذي كان يبكيها طوال اليوم التالي لليلة التي يكون فيها, وبعد مرور الأسابيع, تجرأت بأن منعته عنها, بعد أن ولدت البنت الثانية عاما كاملا .

_ 16 _

طلاق شو, شو بتحكي إنت, بعد عشر سنين, وبعد ما صار بيناتنا بنتين بتحكي طلاق, ليش شو ناقصك, عايشه بقصر والمصاري مغطياك فوقك تحتك, عشت برة فلسطين, وصرت تعرفي كيف تحكي, طلع لك جناحين والله يا نشوى .

وطلع لي أظافر كمان

باحكي لك استهدي بالله وانسي هالحكي, ولا تجيبي هالسيرة ع لسانك أبدا .

لو انك فلسطيني, ما بتتحمل أصلا اطلبها منك, كان لحالك طلقتني بهدوء, بس إنت مش فلسطيني, إنت رجل أعمال, كل شي عندك مصاري .

مالها المصاري, كل شي بنشرى بالمصاري, هيك وإلا لأ .

لأ مش هيك يا بزنس مان, أنا ما بنشرى بالمصاري .

خد كل المصاري وأعطيني حريتي .

ما اشتريتك قبل عشر سنين بالمصاري

آه صح بتحكي اشتريتني, لكن هيك حكيتها قبل عشر سنين, نشوى اليوم يا سيد سمير مش هي نشوى أم 18 سنة, اليوم عمري 28 سنة, ما بتقدر علي لا إنت ولا اللي أكبر منك.

رفع يده وكاد أن يهوي بها على وجهها .

نظرت إليه بعيون تطلق نارا

تراجع وقال :

طيب بيصير خير .

إتصل بابيها, يا عمي أبغض الحلال عند الله الطلاق, وأنا دخلت عليكو بالمعروف, لو في سبب يخش العقل, كان قلنا, لكن هاي بنتك, قال شو بدها حريتها,

يستمع بالهاتف قليلا ثم يقول :

هو الزواج سترة وألا سجن, هذا كيف لو إنها متجوزة غصب, وألا لو إنها متجوزة ختيار وألا واحد فقير, بنتك يا عمي بترفس النعمة . قال شو, بدها تتطلق عشان تبقى حرة, وقال شو من أول يوم تجوزنا انصدمت في, ما عجبتها, بعجبك هالحكي .

تحكي معها خد احك معها :

_ يا بابا بعده مغلفك بالألف دولار معي ومسكر وما صرفتهم, صار لي عشر سنين وأنا متحملة الويل, فكرت انتحر عشرين مرة . تنصت , ثم تتابع : لا ما بيصير عليهم اشي, أنا هلا كبيرة وعارفة كل قوانين البلد وبأعرف آخد حقي منه منيح, ولا تخاف بنتفق, ومجرد ما اخلص المواضع باجي لعندك . مع السلامة

جن جنون سمير : هيك يعني أبوك وافقك , شكله الزلمة خرفن .

لا تغلط بابوي يا محترم .

أعاد الاتصال وكان مع أخيها:

حل لي هالقصة الله يخليك, وأنا جاهز .

تدخلت هي وقالت له : لا تغلب حالك, ما حدا بحل لك هالقصة غيري أنا, أقعد يا ابن الناس, أنا عارفة إنه القصة عندك مصاري وخايف إني أشاركك بالشركة والعقارات والحسابات في البنوك, لا تخاف, بلا من النص, ما بدي النص, وافق إنت, مقابل الثلث .

رد بالقول : ولا الثلث, باعطيك مبلغ يكفيك طول حياتك, وتتنازلي عن الحق القانوني بكل أملاكي والأهم عن حضانة البنات .

_ قديش يعني ؟

_ ممكن لحد نص مليون

_ أنا موافقة .

لم تنم تلك الليلة, أخيرا انزاح عن صدرها الكابوس, عشرة أعوام من العذاب النفسي والمعاناة الجسدية, والسبب عقد شرعي, ورقة هي بالضبط ورقة ملكية أو صك عبودية تماما كما كانوا يشترون العبيد قبل قرون, لك طظ بكل الأوراق, وطظ بكل عقود الزواج الشرعي والعرفي والمسيار والمتعة, كلها عقود ذكورية, بتعطي الرجل حق ملكية المرأة .

أطفأت الضوء, أشعلت شموعا, ثم قامت بخلع ملابسها حتى صارت عارية تماما, كما لو كانت ترغب في أن تخلع كل ما علق بها وبجسدها طوال تلك السنين العشر, وقفت أمام المرآة, رأت تمثال جليل, تحسست كل تفاصيل جسدها, ما زال رشيقا, فتيا ومثيرا .

جسدي هذا الذي كان أداة تعاستي عشر سنوات سأجعل منه وسيلتي لقهر الرجل الشرقي الذي ما زال قابعا في عمق الذاكرة الجمعية, ويرى في المرأة مجرد جارية أو أمة, تشترى بالمال, لذا استغرب ممن يتفاجأون من إقدام بعض الجماعات على إقامة أسواق النخاسة حيث يتم بيع النساء السبايا في الحروب, كما تباع الماشية والفاكهة والخضروات. منذ ألف وخمسمائة عام والعرب هم هكذا, ألم يشتر ذاك الرجل الذي عاش نصف عمره في بلاد الغرب, وظل محتفظا بالأعرابي بداخله, بجواز سفر كندي وبحياة القصور جسدي, جاء ومجرد أن رآني, تأمل جسدي أو عاينه فاشتراني, وباعني أهلي له مقابل "السترة" وطمعا في الامتيازات والهدايا, هو حتى لم يفكر للحظة في أن يصادقني أو أن يحاورني, أن يفتح عقلي ويرى ما بداخله, ولم يفكر في أن يخاطب قلبي وأن يعرف بم ينبض, ما يحب وما يكره, يرى الرجل المرأة جسدا فيقرر الشراء ويدفع النقود التي هي المهر .

جسدي هذا سيكون عرين اللبؤة التي ولدت ونشأت ومن ثم تربت في داخلي, حتى غدت الآن قوة هائلة, لن يقوى أي رجل على مقاومة إغوائه, وعلى التمنع عن اصطياده, سيكون جسدي أداتي ووسيلتي لاصطياد الرجل, وبدلا من أن أكون أداة متعته سيكون هو أداة إشباعي, وسنرى يا معشر الرجال من يصمد منكم لحظة أمام إغواء هذا الجسد العظيم, سأعوض العشر سنوات العجاف بعشر مقابلها مشبعة بالغيث والمطر .

الفصل الثالث

_ رام الله _

_ 1 _

لم تصدق أنها أخيرا صارت حرة, وأنها قد حصلت على ورقة الطلاق, وتمت تسوية الأمر رسميا وفق عقود وورق, طز بكل الورق, المهم عندي أني صرت حرة وخلصت من هالكابوس, عشر سنين محبوسة بقصر, كما لو أني عصفور مهمته أن يسلي صاحبه, مقابل إنه بيحط له الأكل والشرب, وبيحكوا انه انتهى عصر العبيد, يمين بالله أن العبودية اليوم متل زمان وأكتر .

ما أن أخذت ورقة الطلاق, ورقة التسوية المالية التي تمت بعد أن تنازلت عن حضانة البنتين وبالتالي لم يعد لها الحق في اقتسام ثروته معه, مقابل أن أعطاها مبلغا ماليا كان عبارة عن شيك بنحو نصف مليون دولار, وضعتها في حسابها البنكي, حتى قامت بتقبيل بناتها, وغادرت القصر برفقة عصام, الذي أخذها إلى بيته حيث يسكن مع أمه .

بعد أسبوع من إقامتها مع عصام, وبعد أن تحررت, انفتح باب العلاقة الحميمة بينهما, وفي تلك الليلة, كانت ليلة دخلتها الحقيقية, شعرت بأنها كانت فعلا عذراء, لم تمارس الجنس من قبل مطلقا, فالمغتصبة تبقى عذراء حتى لو تهتك غشاء بكارتها بفعل مجرم .

هي حققت حلما رافقها عشر سنين بأن تكون هي وعصام عشيقين, لا يمنعهما شيء عن أن يمتع أحدهما الآخر بالجنس, وقد صار ذلك ممكنا دون أي مانع, خاصة من جهته, فهو ما زال يعمل لدى سمير, وفي كندا ليس هناك ما يمنع الخلوة الخاصة بين رجل وامرأة ما دام الأمر يتم برغبة مشتركة بينهما, دون إكراه أحدهما للآخر أو إغتصابه .

كم هي ترغب في صاحبها هذا المساء, انتظرت إلى أن نامت أمه, فرغم أنها تنام في غرفة وحدها, وهي في غرفة أخرى, وعصام كذلك, ورغم أنه مرَّ وقت وهي تعيش معهما في منزله الخاص, إلا أنهما _ هي وهو _ حرصا على أن لا ترى أمه أو تسمع أي شيء حميمي بينهما, ليس لأنها تستنكر مثل هذا الأمر, فهي على كل حال عاشت عقودا من السنين في هذا البلد الغربي, وتعرف أن عادات الناس هنا وثقافتهم تسمح للرجال والنساء أن يتساكنوا معا, حتى هي وأبو عصام عاشا وقتا معا كما الأزواج قبل أن يتزوجا وقبل أن ينجبا الولد الوحيد لهما, لكن لأنها هي حتى وهي تصاحب عصام, تريد أن تظل هكذا صاحبته, أو الجيرل فرند تبعه أو أنه البوي فرند الخاص بها, ولا تريد أن "تسجل" بإسمه أمام الناس أو أن ترتبط به إرتباطا ملزما .

إحتراما للأم الوحيدة التي ليس بحياتها رجل, ولأنها رحبت بها في منزلها ليس على أساس أنها صاحبته أو عشيقته, ولكن على أنه صديق لها ولعائلتها السابقة, أي زوجها وبناتها, وأنها فلسطينية " بلدياتهم يعني" وليس لها من أحد هنا بعد أن تطلقت, وهي تقيم معهما لأنها مضطرة للبقاء في كندا وقتا حتى تنتهي من فض الشراكة مع سمير وإنجاز معاملة الطلاق, وضمان تنفيذ ما اتفقا عليه, ومتابعة المحامي .

ترغب فيه, فما أن ذهبت الأم لتنام حتى انقضّت عليه كما لو كانت تريد افتراسه, نهرها, وكان واضحا بأنه مشغول عنها, فهذا المساء هناك حدث جلل .

إستغربت من صدّه لها, الذي لم تتعوده منه من قبل, نظرت إلى التلفجن الذي كان لا يخفض عينه عنه, فرأت مباراة كرة قدم, قامت على الفور بإطفائه, جن جنونه :

لك إنت شو عملت, شغليه بسرعة

ساقت عليه الدلال وبكثير من الدلع قالت :

لا ما بدي, ركض وراءها ليأخذ منها الريموت, هربت وهكذا أخذ يلاحقها وهي مثل الغزال تنط من على كنبة أو تركض وراء كرسي إلى أن أمسك بها, فاحتضنته والتهمت شفتيه, فما كان منه إلا أن أستسلم, وفي لحظة الاندماج والتوحد بين جسديهما وروحيهما, كان اللاعب الايطالي غروسو يسجل ركلة الترجيح الخامسة لمنتخب ايطاليا في المرمى الفرنسي وتفوز ايطاليا بكأس العالم للمرة الرابعة في تاريخها, لحظتها شد بيديه على حوضها وقذف بكل ما في داخله من رغبة وشوق ومتعة فيها .

مكثت عاما كاملا وهي مع صاحبها, تتابع استكمال الإجراءات الخاصة بتنفيذ الإتفاق, وهي على كل حال لم تكن في عجلة من أمرها, كما أن أهلها _ أبوها وأمها وأخوها _ وافقوا على

بقائها هناك, بعد أن علموا بأمر طلاقها, وأنها قد تركت بيت طليقها وتقيم مع أم مدير مكتبه وصديقه, وذلك على أمل أن يجري بينها وبين سمير تصالح, أو أن تظل هناك بقرب إبنتيها, إلى أن جاءها الخبر بأن أباها مريض جدا, إنتابها الندم, فهي تعتقد بأن أباها قد مرض بسبب طلاقها, وما آل إليه أمر زواجها, الذي لم يكن متحمسا له منذ البداية, وكان يدرك بوعيه العفوي بأنها غير مرتاحة فيه, رغم مرور السنوات بذلك الزواج وحتى بعد مجيء البنتين .

لن أسامح نفسي لو حدث لأبي شيء, لذا تركت عصام والبنتين وكندا وكل شيء وطارت إلى القدس, ومن المطار إلى البيت ثم إلى المستشفى بشكل متتابع وسريع .

وصلت القدس, مهزومة في نظر أمي وأبي وأخي, لكني بداخلي كنت أشعر بأني كما لو كنت بالسجن الإسرائيلي معتقلة مدة عشر سنين وخرجت, تأملت كل الشوارع والجدران, وتذكرت كل أيام المراهقة .

حضنت أباها كما لو كانت تتشبث بروحها التي بدأت تغادر جسدها, أما هو فكانت في عينه دمعة محبوسة منذ عشر سنين, آه يا أبي لو انك تذرفها فتريح قلبك وتريحني .

وكان لابد أن تأتي أم جليل لتسلم علي, نظرت إلي بحسرة, سألتها عن جليل, فأخبرتني بأنه قد حصل على منحة لدراسة الدكتوراه في ايطاليا, وأنه سيسافر قريبا, ثم أخذتني إلى بيتهم وأعطتني التمثال .

مدت يدها تناولت تمثال المرأة الجاثية العارية من أم جليل, تأملته, تذكرت كلام جليل :جسد المرأة هو الجمال الحقيقي, ركضت إلى المرآة, نزعت عنها كل ملابسها, وقفت أمامها عارية تماما, أنت تقول الحق يا حبيبي, هيا تعال الآن, وارسمني, بل انحت لي تمثال المرأة العارية, ارسم لي عرين الجسد, فأنا الآن صرت لبؤة, لم أعد تلك القطة المغمضة ابنة الثمانية عشر عاما .

بقيت أفكر في أن أزوره شرط أن يكون وحده بالبيت, إلى أن صحوت يوما بالليل, وبلا مقدمات ذهبت إليه, وقفت أمامه, ثم خلعت ملابسي, وقفت أمامه عارية تماما, كنت أريد أن أعتذر له على طريقتي, لكنه رفض أن يلمسني, نهض من على كرسيه وتناول ملابسي ووضعها على جسدي, ثم قبل رأسي, نظرت إليه, رأيت دمعة حائرة تتكور في عينه, تحاول جاهدة أن لا تسقط .

ثم, ما هي إلا أيام مرت على وصولها البلاد حتى كان جليل يسافر إلى إيطاليا وحتى كانت روح أبيها تعود إلى بارئها .

_ 4 _

ماذا تفعل في القدس بعد أن توفي والدها, لو أقامت في المنزل الذي ولدت فيه, ستكون تحت رحمة ووصاية السيد نور الدين, الذي لن يعد عليها أنفاسها وحسب بل سيكتمها تماما, هل ستعود إلى كندا, وماذا تفعل هناك, سيظن سمير بأنها عادت إليه, من أجل أن يرجعها, كما أن الإقامة في بيت عصام ومع أمه لا تريحها, كيف تعيش في بيت ليس بيتها, شعرت لوهلة بأنها كانت تقدم جسدها لعصام مقابل إقامتها في بيته, وأنها لو أقامت في بيت أبيها بعد موته وفي ظل نور الدين فإنها ستضطر لأن تقدم روحها وحريتها التي تحملت عشر سنين وضحت بكل شيء من أجل أن تحصل عليها مقابل تلك الإقامة . ما كان يمكنها أن تعيش في القدس رغم ولعها بالبلدة القديمة التي شهدت فيها مراهقتها الملتهبة, لأن إقامة نور الدين في بيت العائلة, على ما هو عليه من تشدد وتزمت, دفعتها للهرب إلى رام الله .

أفضل حل وجدته هو أن تقيم برام الله, لذا على الفور ذهبت إلى مكتب عقاري, وطلبت منه شراء شقة, فكان أن اشترت شقة بالطابق الرابع في عمارة بشارع الإرسال .

أول شيء فعلته حين استلمت مفاتيح شقتها, كان أن وضعت التمثال الذي أعطتها إياه أم جليل في المدخل, ثم علقت صورة لوحة المرأة الجاثية العارية لمايكل أنجلو في الصالون, ثم قررت أن تضع داخل غرفة نومها صورة لها وهي عارية تماما, صورة تقوم بالتقاطها كل عام في يوم عيد ميلادها, وقد حرصت على ذلك التقليد حتى حين كان يمر ذلك اليوم في عام يصدف أن لا تكون فيه مرتبطة بصاحب, بأن تطلب من وفاء أن تقوم بتصويرها, وحين ظهر السلفي صارت تقوم بذلك بنفسها, وتظل تقارن بين الصور, وترى إن كان قد مرَّ الزمن على جسدها أم ليس بعد, كانت تتمنى من أعماقها لو أن جليل هو من يقوم بتصويرها, أو أنه يرسمها كلوحة عارية أو لو يصنع لها تمثالا عاريا, لكن تلك الصور ربما كانت محاولة منها لتعويض تلك الرغبة التي لم تتحقق .

_ 5 _

ما أروع أن أكون حرة, أنا هنا وحدي, أنام وأصحو, كما أريد وفي الوقت الذي أريد, آكل واشرب وأدخن, كما أرغب, أنا في بيتي هنا, اخرج واذهب هنا وهناك, أتعرف على هذا وأصادق تلك كما يحلو لي, لا من رقيب ولا حسيب ولا شريك .

لكن الوحدة إلى حد ما مملة, أو أن عادة العيش مع الآخرين هي التي توحي لنا بهذا, نولد وننشأ ونترعرع بالاعتماد على الآخرين, خصوصا بالنسبة للبنات والنساء, يقينا بأن الإنسان قبل آلاف السنين لم يكن هكذا, انظر إلى أبناء الحيوانات, ما أن تقوى على المشي حتى تبدأ بالاعتماد على نفسها في اكتساب رزقها, أما نحن فمنذ صغرنا يقومون من خلال سرد قصص الجدّات بزرع الأوهام في رؤوسنا بحيث كبرنا ونحن نخاف من النوم وحدنا, ها أنا وحدي أنام وأصحو, آكل واشرب واستحم ولا من عفريت ظهر لي ولا من جني داس لي على طرف .

منذ اليوم الأول بدأت نشوى تتعرف على المكان, ذهبت للسوبر ماركت واشترت بعض ما تحتاج إليه من سكر وشاي وقهوة, حليب وأجبان وخبز, ثم تمشت قليلا في الشارع الذي أدهشها بكثرة ما فيه من سوبرماركتات وكوفيهات, حتى وصلت دوار المنارة, الذي يعتبر مركز المدينة ومفترق الطرق التي توصلها بالمدن الأخرى في الضفة الغربية .

جميلة جدا رام الله كمدينة حديثة, وبمستوى الحداثة الذي تحتويه بين طياتها, تشبه مدن الغرب كثيرا, من حيث الحياة الليبرالية التي تظهر في كل مكان, فحتى المارة من البشر ترى فيهم المتدين والعصري, المحجبة والسافرة, حتى أن هناك بعض المحلات التي تبيع المشروبات الكحولية, ليس بعيدا عن المساجد, ورام الله مقارنة بالخليل أو غزة, أو حتى جنين, والقدس بالطبع, تبدو وكأنها تنتمي لعالم آخر .

لم يمض شهر على إقامة نشوى برام الله حتى كانت قد ألفت المكان والمدينة, وقد بدأت تشعر باستقرار حياتها, وهي تعيش وحدها, رغم ما ينتابها من رتابة, فهي تقيم بشقتها معظم الوقت, تذهب فقط للسوبر ماركت, وللسوق تشتري ما تحتاج من ملابس أو ماكياج, حتى صارت تعرف المحلات التي تحتاجها لشراء كل ما يلزمها, إضافة إلى الكوفي شوب الذي اختارته من نحو عشرة كافيهات بالشارع الممتد طويلا, ذلك أن الكثير من رواده من الأجانب الذين بعضهم يجيء كسائح لبلادنا المقدسة, وبعضهم للعمل ضمن المنظمات المدنية, إضافة إلى الشباب الفلسطيني المتحضر, والذي نطلق عليه عادة مصطلح : أبن ناس .

من ناحية أخرى, ومقارنة بمدينة القدس المفعمة بروح الشرق, المدينة التاريخية, والتي كل حجر أو شارع أو زقاق فيها مسجل عليه فصل من تاريخ يمتد مئات وآلاف السنين, على عكسها كانت مدينة رام الله, تبدو كما لو كانت مدينة "لقيطة" لا تنتمي لمحيطها في شيء, كانت تبدو كما لو أنها ولدت للتو, مدينة حديثة, يبدو عليها الثراء, كما تظهر على ملامحها واضحة معالم الحداثة الغربية, سكانها مختلطون من القرى المجاورة وممن وجد له مصدر رزق فيها, وكانت هي أصلا عبارة عن بلدة أو حتى قرية صغيرة, هاجر بعض أبنائها لأمريكا, ومن هناك كانوا يجمعون النقود فيعودون بها ليشيدوا المنازل الحديثة المبينة من الحجر "القدسي" الشهير, الذي يضفي جمالا معماريا, في الوقت الذي يعتبر فيه عازلا لحر الصيف, مانعا لقرّ الشتاء .

وحين تحولت إلى عاصمة للسلطة الفلسطينية التي ظلت طوال عشرين سنة مثل الفتاة العانس, لم تتحول إلى دولة مستقلة, ولم تعلن فشل التوصل للحل مع الإسرائيليين, أخذت من تراث الدولة العربية أسوأ ما فيها _ مظاهر وإجراءات ونفوذ أجهزة الأمن, أنتشرت فيها مظاهر السلطة عبر عناصرها في كل مكان, خاصة حين يكون هنالك احتفال عام, كما كان في ذلك اليوم الذي تبدأ به السنة الميلادية, حيث دهشت أول سنة عادت بها من كندا, حين رأت مظاهر الأحتفال الشعبي والرسمي بعيد رأس السنة في شوارع رام الله , حين أقامت هي حفلة خاصة

في شقتها لأصدقائها وصديقاتها اللواتي كن في معظمهن من جاراتها في العمارة, وبعض ممن عادت للاتصال بهن من صديقات الصبا بالجيرة في البلدة القديمة أو بزمالة المدرسة الثانوية .

مع ذلك فإن رام الله تعتبر نموذجا للتعايش بين المسلمين والمسيحيين, خاصة أنها تتداخل مع توأمها مدينة البيرة اللتين تشكلان معا محافظة رام الله والبيرة, والتي عادة ما ترأس بلديتها امرأة كدليل على المساواة وعلى ما وصلته المرأة في بلادنا من تقدم اجتماعي, ومن يعرف رام الله أو يزورها للمرة الأولى لابد له أن يعرف أو أن يمر من دوار المنارة الذي يتوسطها والذي يعتبر مركز التقاء أهم شوارعها: الإرسال, النهضة, ركب ويافا الذي يتوسطه دوار آخر هو دوار الساعة أو ميدان ياسر عرفات , ياسر عرفات الرجل الذي ظل يحلم بالقدس إلى أن قضى شهيدا فدفن في رام الله على بعد 15 كيلومترا من القدس .

وفي دوار المنارة تربض الأسود الخمسة التي ترمز لحكاية تنم عن التداخل بين الأشقاء, الفلسطينيين والأردنيين, حين قامت في الكرك وهي مدينة تقع جنوب عمان في الأردن, يتعايش فيها المسلمون والمسيحيون, حسب الرواية الشعبية, حرب بين عشيرة الحدادين المسيحية وقبيلة مسلمة, اضطر على أثرها راشد حدادين إلى اللجوء لرام الله, حيث ظل فيها إلى أن توفي غريمه في الكرك فعاد لموطنه تاركا أبناءه الخمسة في رام الله: صبرة, إبراهيم, جريس, شقير وحسان, الذين كانوا أجداد العائلات المعروفة الآن باسم: آل يوسف, وآل عواد, وآل الشقرة, وآل الجغب, وآل عزوز .

خلال الأيام الأولى تعرفت نشوى على جاراتها: وفاء وماجدة, وغادة وسمية, وبعد أن استضافتهن كل واحدة لوحدها, فكرت في أن ترسي تقليدا جديدا, وهو أن تجتمعن معا, فدعتهن يوما بعد العصر وكان ذلك قبل أيام قليلة من ليلة رأس السنة, حيث معظمهن يكن بلا زوج, شربن القهوة, وتناولن المقبلات والتسالي من الموالح وأكلن الفواكه, وتحدثن وثرثرن كثيرا, ثم قمن معا بإعداد العشاء الذي تناولنه مبكرا واشتمل على التبولة والمعجنات والمشويات, ثم شربن البيرة, وكن يدخن كلهن . وعند الغروب, كانت وفاء تقوم بتشغيل اسطوانة منوعات, لتبدأ النسوة بالرقص, على طبيعتهن, دون أي حرج, الشرط الوحيد كان أن لا تقوم ولا أي واحدة منهن باستثناء نشوى بالتقاط الصور أو الفيديوهات لهن, فقد كن قد أخذن راحتهن كثيرا, إن كان بالجلوس أو التدخين أو شرب البيرة أو الرقص أو إطلاق النكات الإباحية, التي تعبر عن كبت متأصل لديهن, ولو أن الفصل كان صيفا وليس شتاء لربما كن شبه عاريات .

كانت نشوى تود لو توافق جاراتها على فكرة أن يحتفلن بعيد رأس السنة معا, لكن كانت كل واحدة منهن متفقة سلفا, إما مع صاحبها أو زوجها على السهر ليلة رأس السنة معا, وفاء كانت متفقة على الاحتفال مع صاحبها في فندق بالقدس, وغادة مع زوجها بالبيت, وسمية مع عشيقها, وماجدة مع زوجها على اللابتوب !

لم تعرف ماذا تفعل هي, سوى أن تخرج قبل منتصف الليل بقليل, وحدها لتتجول في شوارع رام الله, دهشت حين شاهدت المنارة والإرسال تعج بالبشر, ودهشت أكثر حين شاهدت التجمعات ترفع الأعلام الصفراء وأعلام فلسطين وصور ياسر عرفات ومحمود عباس, ولم تعرف لم يتحول الاحتفال برأس السنة هنا في فلسطين إلى احتفال وطني, ظنت أن للأمر علاقة بكون الكثير من سكان المنطقة ما بين رام الله والقدس والتي تشمل بير زيت وبيت لحم وبيت

ساحور من الطائفة المسيحية, لكنها سرعان ما عرفت من خلال ما سمعته عبر الميكروفونات من أن الأول من كانون ثاني/يناير, أي اليوم الأول من كل عام إنما هو ذكرى انطلاقة الثورة الفلسطينية .

أعجبتها كثيرا الفكرة, ولم تعرف بأنها إنما كانت مصادفة بحتة, لكنها تؤكد على أن النسيج الاجتماعي الفلسطيني إنما هو وشيج بين الطائفتين, وأكثر من ذلك عرفت أن الوطنيين الفلسطينيين يعتبرون السيد المسيح, عيسى بن مريم, فلسطينيا .

تذكرت يوم أحبت قلادة السيدة العذراء يوم ذهبت مع أمها وخطيبها الذي صار بعد ذلك زوجها لأكثر من عشرة أعوام عجاف, في ذلك اليوم لشراء الشبكة وجهاز الفرح, فأدركت بأن إعجابها بالقلادة لم يكن شاذا ولا غريبا, رغم أن أمها استنكرته ورفضته . شعرت بالكثير من الراحة الداخلية, كونها في حقيقتها فلسطينية حقه, وما هي إلا لحظات وكانت تقرر أن تذهب إلى محلات بيع الذهب لتبحث عن قلادة للسيدة العذراء فتشتريها وتضعها في عنقها, جنبا إلى جنب مع قلادة خارطة فلسطين التي تتوسطها قبة الصخرة والتي ما زالت تضعها حول عنقها حتى تلك اللحظة .

_ 7 _

الوحدة تضغط علي, أنا بحاجة ماسة لرفيق, لصديق, لصاحب, أنا هنا والآن لا افعل شيئا, حتى أني لا أعد الأيام, التي تمر تباعا دون أن تحمل لي أي جديد أو مختلف .

أعزب دهر ولا أرمل شهر كما يقولون, أنا وحدي, لا أكاد أطيق الجلوس في البيت, رغما عني أجدني ارتدي ثيابي التي عادة ما تكون بنطال جينز وتي شيرت في الصيف, وأخرج إما لأجلس قليلا في "آيس كريم ركب" أو كافيه لافيه, أفضل دائما أن أجلس إلى طاولة خالية حتى أكون وحدي, آكل البوظة على مهل أو أشرب فنجان القهوة برواق, عموما أنا في هذه العادة بالتحديد يتمثل بي برجي "الثور" الذي لا أتصف به كثيرا, نظرا لأني مولودة بآخر يوم فيه .

لفت انتباهي دخول شاب وسيم, طويل القامة, رشيق, جسمه متناسق, أسمر, بشعر ناعم طويل, جلس قريبا, وأخذ يرمقني كما لو كان معجبا بي أو أنه يشبّه علي, تناول سيجارة وأشعلها بطريقة مثيرة, يرتشف القهوة ثم يمجُّ نفسا من السيجارة وينظر لي, توقعته أن يبادر بالحديث معي, انتهيت من فنجان قهوتي ولم أغادر, فأنا أنتظر أن يبادرني بالحديث, فقد أعجبني في الوقت الذي كان فيه من الواضح أنه مهتم بي .

لم يفعل, فقررت أنا أن أبادر بالحديث, بعد نحو ساعة, طلبت منه أن أتحدث بهاتفه, ذلك أن بطارية هاتفي قد فرغت, فجاء وجلس بجانبي, ثم سألني ماذا أشرب .

طلب لي البيرة

سألني إن كنت مرتبطة

سألته نفس السؤال

ثم عزمته على الشقة

أعددت له القهوة, وانتظرته أن يبادر إلى شيء ما, فلم يفعل, كان خجولا, كما لو كان بنتا بكرا, مازحته وسألته عن علاقاته وإن كان قد عرف النساء من قبل, تشجع فاقترب مني, وأخذ يقبلني بسذاجة واضحة كما لو كانت المرة الأولى التي يقبّل فيها امرأة .

لحظات وكان يبلل بنطاله, استأذن ودخل الحمام, ثم عاد واستأذن وغادر.

مراد

_ 1 _

ستة شهور مرت, وهي كلما نفذت لديها النقود, تذهب إلى محل الصرافة, لتقوم بإجراء تحويل من حسابها الذي في كندا, لذا اقترح عليها صاحبها عصام, الذي ظل على اتصال بها, أن تقوم بفتح حساب خاص لها في واحد من البنوك المحلية, ثم تقوم بإيداع مبلغ من نقودها التي هي مودعة في البنك الكندي, ثم أن تقوم باستخراج بطاقة سحب آلي فترتاح .

عرضت الأمر على جارتها وصديقتها, وفاء, أخبرتها بأن الأمر في منتهى السهولة, بل وإن لها إبن عم يعمل في بنك قريب, هنا برام الله

_ مراد يا نشوى, ابن عمي اللي بيجي عنا وبيزورنا هون بالبيت .

_ أنا أخدت بالي منه .

_ لك مالك, مو سألتيني مرة عنه

_ آه أتذكرت هذا الشب الخجول, الحلو, اللي شفته بالعمارة من أسبوع .

_ أي هو, خدي هي رقم جواله, اتصلي عليه وحددي موعد, وألا احكي لك روحي بكره واسألي عنه وهو بيساعدك وبيهتم فيك .

ذهبت إلى البنك, وسألت عن مراد, سلمت عليه, ومنذ اللحظة الأولى شعرت بكيمياء التوافق الروحي بينها وبينه . بدأت إجراءات فتح الحساب, ظل مراد معها بعد أن أخبر مديره بأنها

صديقة إبنة عمه, يتابع معاملتها إلى أن سلّمها البطاقة ورقم الحساب, شعرت بكثير من الامتنان للشاب, فمدت يدها وصافحته, ثم تبادل معها رقم هاتفه الشخصي .

بعد يومين كان يتصل بها ويسألها إن كان كل شيء على ما يرام, وأن البطاقة شغالة, وما من مشكلة, أجابته بأن الأمر هكذا جيد, فكان أن عزمها على "ركب" .

_ 2 _

ما ألذها آيس كريم ركب قالت

كأنك تأكلينها للمرة الأولى

أبدا لكني نعم أشعر بأني كل مرة كما لو كنت آكلها للمرة الأولى

تناولا البوظة معا, وتحدثا عن الحياة في كندا, سألها إن كانت مرتاحة في رام الله, شكت له من وحدتها, ثم سألته عن عمله, وعن حياته, شعرا كلاهما كما لو كانا يعرفان بعضهما منذ زمن طويل, وشعرا بالرغبة في أن يبقيا معا, سألها إن كانت ترغب بجولة في المدينة, أجابت بالقبول, فأخذا يتمشيان معا يجوبان السوق ويدخلان المحلات, إلى أن شعرت بشيء من التعب, استأذنته في العودة للبيت, ثم أصرت على أن ترد له العزومة, ولكن بدل الآيس كريم, قهوة, وبدل ركب, عندها في البيت .

_ 3 _

لم يكن بالصدفة أن تمثال الحرية كان لامرأة, ولم تكن بالصدفة كل آلهة اليونان والرومان, المصريين والأشوريين كلها نساء, لم يكن بالصدفة أن من أخرج آدم من الجنة إنما هو جسد حواء, وكان الجنس هو ما أشارت له الأسطورة بالتفاحة .

والجنس من حيث هو سر الحياة ومفتاحها, لا يتحقق إلا بجاذبية جسد المرأة الجميل, الشهي, جسدي إذا هو أغلى ما لدي, أثمن من المال, والشهرة والأسرة والزوج وكل شيء .

غرفة نومها كانت بمثابة عرين يحتوي الرجل من كل إغواء, ومن كل شر, لا يجوز أن تدخله هكذا ببساطة, عليك أن تذهب لتستحم أولا, وحين تدخل ترى الشموع ترسل إضاءة خافتة, فيما رائحة البخور تعبق به, الستائر منسدلة, عليك أن تنسى الوقت والزمان, عليك أن تنسى من أنت ومن تكون, أترك على الباب إسمك وعمرك وصفتك, أدخل متحررا من كل إرثك وأفكارك, أدخل إلى جسدي, كما لو كنت تدخل الجنة .

بالكاد هي تعرف مراد, كانت المرة الأولى التي تدعوه فيها إلى شقتها, وكانت تنوي أن تنام معه, فقد خلقت أجواء رومانسية تماما, فعلاقتها به اتسمت بهذا منذ أول يوم, كان رجلا خجولا إلى حد ما مهذبا, حساس جدا, معه تشعر بزهو داخلي بأنه رجلها, وتظن أن النساء يغرن منها

عليه, فهو بلا شك يمكنه أن يثير الرغبة في أية امرأة شرقية تتوق للإرتباط برجل ناجح ووسيم وراق, وهي متأكدة من أنه سيحضر ومعه باقة ورد, وربما زجاجة عطر, لذا فقد أضاءت الشموع ووضعت كأسين للبيرة, ونوعت من المازة, فواكه وموالح, وبعض الأكل الخفيف, خبز وجبن ومارتديلا, زيتون وقليل من الزعتر البلدي .

لم يتأخر مراد كثيرا, فقد جاء وبيده فعلا باقة ورد بيضاء, وبجيبه زجاجة عطر, ما أن دخل حتى سلم عليها بود, ثم أعطاها باقة الورد, ثم أخرج من جيبه زجاجة العطر, وفتحها ثم رشها, هربت منه, لكنها عادت واحتضنته وقالت له :

شكرا كتير

رد عليها باقتضاب : العفو

وجلس

كان يبدو عليه شيء من الانزعاج أو القلق, ظنت ربما لأنها المرة الأولى, وهي على أية حال ليست في بيته, فسألته, رد قائلا :

ما في شي

علي أنا, بجد احكي لي مالك

أجاب : غزة مولعة ومن مين, بين حماس وفتح, شفتي, مش مكفينا اليهود يعني, اتفو على هيك زمن وهيك قيادات وحتى هيك فصائل

ضحكت إلى أن اهتز كل كيانها : مين حماس وفتح, وشو القصة, أنا ما بعرف شي ولا سمعت شي

رد عليها قائلا : أحسن لك, ثم تناول زجاجة البيرة, وسألها : ممكن

ردت : طبعا, هو أنا حطّاها للفرجة

وتناولت هي أيضا كأسها وملأته ثم رفعته قائلة : في صحتك .

أكثر من مرة كانا يغيران قليلا من برنامج اللقاء الخاص, فكان كل منهما يقوم باستئجار غرفة بفندق يتفقان عليه, ثم يمضيان الليلة معا .

لكنه كان كل مرة يجيء لها بباقة ورد تحبها, ويقول لها بأن الورد يحدثه كل ليلة عنها وأن الباقة ستنوب عنه في أن تكون معها طوال الوقت بدلا عنه, كان حالما لدرجة أنه كان يحاول إقناعها بأن الورد يتنفس ويتحدث وأن لغة الورد إنما هي رائحته, والورد لا يقول إلا كلاما حلوا, لذا حين يتحدث يكون كلامه عبارة عن رائحة عطرة, أما حين يصمت فإننا لا نشم له رائحة .

كانت تضحك كثيرا حين يقول لها مراد : هذا عرين الجسد, ويبالغ كثيرا حين يقول بأنه يفكر في أن يكتب على باب شقتها عرين جسد نشوى, بل من يدري ربما لو أنه كلف من بلدية رام الله بإطلاق اسم جديد على المدينة لاقترح : عرين الجسد, هنا كان هذا المكان عرينا لجسد أجمل امرأة عرفها في حياته .

هكذا بدأت علاقتها مع مراد, التي استمرت مدة عامين, عاشا خلالها, ليس معا تماما, فهي تعيش بشقتها, وهو يقيم مع أصدقائه, لكنهما كانا يلتقيان مرة واحدة على الأقل كل أسبوع, يذهبان ليتعشيا معا, ثم بعد ذلك يرافقها إلى شقتها, حيث يمكث عندها ساعة أو ساعتين, يستمتعان معا, ثم يغادر .

_ 4 _

ذات يوم, كانت بالمطبخ تقوم بإعداد فنجان من القهوة, فدق الموبايل أكثر من مرة, حين جاءت للصالون تناولت الموبايل, تفاجأت بأن رقما غريبا يطلبها, الرقم مش "مسيف" عندي, شو يعني, أنا أعطيت رقمي لحدا ونسيت, وألّا حدا من صحابي أو صاحباتي عاطي رقمي لحدا, شو القصة يعني :

لم تنته تساؤلاتها بعد, وكان الرقم إياه يعاود الإتصال :

مرحبا سها, شو وينك, ما بدك تحكي

قاطعته مين سها ؟

ضحك وتابع : هلا لا تتخوتي علي, شو صرت ناسياني

قالت بجدية : يا أخي أنا مش سها, المهم مين إنت ؟

اعتذر بشدة, وقال شكلي خربطت بالرقم, أنا عمر, عموما آسف كتير, من فضلك سامحيني

لا أبدا ما صار شي وأنا نشوى .

ضحكت وقالت : بس شكلها هاي سها حالقيتلك

شفتي بالله عليك عم تتدلل علي, مع إني ما صار لي متعرف عليها غير يومين, بس شكلنا مش متوافقين مع بعض .

حضرتك وين ساكنة ست نشوى

بالإرسال

اها طلعنا جيران, ههه إحنا والقمر جيران

والله إنت ساكن هون كمان, أي كتير منيح .

_ 5 _

أقامت علاقات حسنة, يمكن القول بأنها علاقات صداقة مع جاراتها في العمارة اللواتي كن في معظمهن متزوجات, وبعضهن لديهن أولاد, ورغم أنها هي لم تكن كذلك, إلا أنهن كن يثقن بها, وكانت الواحدة منهن, كلما كان عندها وقت ورغبة, تجيء إليها لتشرب معها القهوة, وتتداول معها الحديث الذي بعضه لا يخلو من نميمة, لكنه _ وهذا هو الأهم _ معظمه فيه بوح وشكوى .

كانت تنتبه إلى أن إحدى جاراتها حين كانت تأتي إليها وتجد جارة أخرى عندها, تتحجج بأنها إنما جاءت لتسألها إن كان لديها علم بأن غدا يوم عطلة, أو أن الرواتب ستتأخر هذا الشهر, أو أن الجسر سيكون مغلقا آخر أسبوع, لكنها بالطبع ما عادت هذه الحجج تنطلي عليها, فهي تعرف بأن كل واحدة من جاراتها تجيء عندها لتختلي بها, ولتفضفض لها بما لا تريد أي أحد آخر أن يعرفه, خاصة عن حياتها الجنسية مع زوجها .

هي طيبة, وكاتمة للسر, لذا وثقت جاراتها بها, كما أنها تعرف أكثر منهن بدوافع الرجل, ما يحب وما يكره, ما يرضيه وما يغضبه, ما عليها أن تقوله أو تفعله حتى تجري مياهها معه كما يجب, والأهم أنهن معها عرفن أن من حق المرأة الطبيعي على شريكها في الممارسة أن يقوم بإشباعها, كما تقوم هي بإمتاعه .

كل مرة كانت تجيء فيها إليها جارتها ماجدة, تعرف بأن شيئا ما قد حدث بينها وبين زوجها, سائق التاكسي, الذي كثيرا ما كان يفاجئها بحضوره للبيت في أي وقت, ويأخذها من يدها ويدخل بها غرفة النوم, حين تسأله, يجيبها بأنه ولعت معه, ومش قادر يستنى, فما شاف حاله إلا ماخد طلب لحاله وجاي البيت, تسأله : بس إيش صار معك يا زلمة, فيجيب : طلعت معي بنت حرام, فستانها شامر لفوق فخاذها, اقسم إني شفت "كلوتها" وطول الطريق تتغنج, لولا إني بخاف الله وبخاف على رزقتنا, كان صفيت ع جنب, وخلعتها بنص الطريق, إيش أعمل جيت لك يا حلالي لاطفي النار اللي ولعتها فيّ هالزبونة أخت التعريفة .

أما غادة, فكانت تحكي لها عن زوجها الذي يحب مشاهدة الأفلام الإباحية كثيرا, لدرجة أنه في ليلة طلب منها أن تشاهد فيلما معه, ثم أن يفعلا ما كانا يشاهدانه من ممارسة .

_ 6 _

كان الوقت مساء, تقريبا لحظة غروب الشمس, فإذا برنة الجرس تقتحم سمعها, تناولت الموبايل, لم يكن أحد يطلبها, الصوت كان هو جرس باب الشقة, استغربت من هذا الذي يأتي إليها دون موعد, غريب أمر هؤلاء الناس هنا, يأتون بلا موعد, التوقيت ربما يناسبهم, لكنه ليس بالضرورة أن يناسب الطرف الثاني, هذا مظهر استبداد في الحقيقة, أكيد هي سمية قالت لنفسها, لكن حتى سمية, غالبا ما تعطيني خبرا حين تدق على الموبايل, فهي تخشى أن يكون صاحبي عندي وأن أمسح الأرض فيها لو قطعت علي خلوتي معه, لكن من يكون ؟

على الأغلب هي سمية

فتحت الباب, فإذا به شاب لم تره من قبل

نعم

مش حضرتك السيدة نشوى ؟

صحيح, في شي

ظنَّت أنه ربما يكون موظف إحصاء أو استطلاع أو خدمات شركة اتصالات, أو حتى رجل أمن .

دون مقدمات قال لها : أنا بحبك كتير, وصار لي وقت بشوفك وإنت طالعة وإنت نازلة, وكل يوم إعجابي فيك بيزيد, بدي أتجوزك إذا بتوافقي .

ضحكت وقالت له بعد أن لاحظت بأن الحوار على الباب قد طال : إتفضل ادخل .

دخل دون تردد .

أعدت له القهوة, شربها, وبعد ذلك أخبرته بأنها مرتبطة, تفهم الأمر, واستأذن وغادر .

غريب أمر هؤلاء الناس, مجرد أن تحدث معي بالهاتف وبالغلط, شكلهم الناس مجرد ما يشوفوا امرأة عم تضحك ومنفتحة ومن غير عقد, وإذا مطلقة القصة بتصير غير شكل, بفكروها بمجرد إشارة بتشلح تيابها .

_ 7 _

مجرد أن تدخل إليها سمية, تكون على عجلة من أمرها, فهي غالبا ما تترك ابنها وبنتها الصغيرين, إما نائمين أو يلعبان في بيتها, وحين تسألها نشوى, ما بتخافي تتركيهم وحدهم, ترد عليها بالقول : هو أنا وين رحت ما بعدت, وأي حركة بتصير ببيتي باسمعها ببيتك .

تفاجأت نشوى : لك شو قصدك, هو إنت بتسمعي شو بيصير عندي .

تخفض سمية صوتها وتقول :

طبعا, الدلع والغنج واللهث والتأوهات, ههه يخرب شيطانك يا نشوى, مرات صراخك بيصحي لي الولد والبنت, مع إني بكون مكيفة وأنا باسمعك, وبصير أرن ع صاحبي يجيني, ايش رايك نعملها مرة جماعي .

يخرب بيتك, حسك عينك تحكي ولا تفكري إنه صاحبك يعرف, بزعل منك ههه .

سرك هو سري, ههه لا تعايريني ولا أعايرك والهم طايلني وطايلك .

حقا كانت لسمية حاسة سمع قوية فهي تسمع دبة النملة كما يقولون, ويبدو أن للأمر علاقة بما اعتادت عليه منذ شهور, من إستقبال صاحبها حين يجيء إليها آخر الليل منسلا, حتى لا يراه أحد, فيقضيان وترهما معا, ثم يمضي منسلا كما جاء .

أما هذا المساء فقد جاءتها جارتها سمية ركضا, تحمل ولديها, بل تجرهما جرا, كل واحد بيد, وما أن فتحت لها, حتى دخلت وأطبقت الباب وراءها كما لو أن أحدا كان يلاحقها .

مالك يا سمة

سألتها

إنت شفتي الأخبار

ردت عليها

لا إنت عارفة أنا ما بشوف ولا باسمع أخبار, شو بدي فيها

لا افتحي التلفزيون وشوفي, حرب يا خيتي حرب

وإحنا مالنا ومال الحرب

قالت وهي تلتقط الريموت وتقوم بتشغيل الجهاز

عموما هيني فتحته للتلفيجن

كانت فعلا مشاهد القصف وإطلاق الصواريخ , تشير إلى أن إسرائيل تلقي بحمم بركانية على غزة

دهشت نشوى للحظة, ثم قالت لجارتها:

وهي غزة ايش فيها غير الناس اللي عايشين فوق بعض, تقولي كوم لحم مصفط, هي الناس بدها تطفش من هالبلاد من قلة ما بتشوف .

اسمعي يا سمية أنا كمان شوي عندي مشوار, طالعة اقضي طول اليوم معه, بدنا نتغدى ونطش بالحرش, إنت دخني لك سيجارة على بال ما أعمل لك القهوة, وانسي الموضوع لا تسممي بدنك ولا تخوفي أولادك, وألا لتكوني خايفة على جوزك .

ضحكت كثير سمية, جوز مين اللي أنا خايفة عليه يا مشحرة, روحي اعملي القهوة روحي .

_ 8 _

فيما بعد ستظن بأن مراد هو الذي أحبته من بين أصحابها الخمسة, فقد كانت علاقتها معه رومانسية, ولم تكن محض جنسية فقط . وبعد أن سافر مراد, شعرت بالوحدة, لكنها بعد أسبوع من الاكتئاب, خرجت من البيت .

بقيت نحو شهر وهي لا تقوى على حبس دموعها, بعد أن غادرها إلى السويد, ماذا يفعل, كان يحلم بالهجرة, بالنظر إلى أنه شاب, ربما يعيش ثلاثين سنة متواصلة يعمل في المصرف حتى يصل إلى درجة مدير الفرع برام الله, مع جواز سفر لا يسمح له بالانتقال من مدينة لأخرى داخل الضفة الغربية, لو صدف وأن سجلت عليه مخالفة أمنية, حتى لو كانت كيدية, أو بالصدفة, أما في السويد فمجرد أن يصل فإنه سيحصل على ضمان إجتماعي ثم بعد خمس سنوات على جنسية تؤهله لأن يجوب كل دول الاتحاد الأوروبي . لم يصدق أصلا حين حصل على الفيزا _ تشينجن, وجاء إليها مباشرة, من الجسر إلى شقتها, وحاول جاهدا أن يقنعها بالسفر معه, توسل إليها أن تقبل بالزواج منه وأن يسافرا ليعيشا هناك معا, لكنها رفضت .

ذنبك على جنبك يا نشوى, تخاطب ذاتها فترد عليها بالقول :

حريتي لا تقدر بثمن ولن أتخلى عنها مهما حدث .

شعرت بوحدة مريرة استمرت بضعة أشهر, تذهب كل يوم إلى "ركب" تتناول بوظته اللذيذة, أو إلى كافي لافيه, تشرب القهوة, ثم تعود إلى شقتها, تأخذ حماما ساخنا, تفتح التلفجن على أم بي سي أغاني , فتدندن مع إليسا :

شاغلني وشاغل بالي

وأجمل إحساس في الكون

اوة نعم هي ترغب في أن تعشق بجنون, هي الآن غير مرتبطة, المهم أنها لم تعد تشعر بالحنين إلى مراد بقدر ما باتت تشعر بأنها آيلة للارتباط مع صاحب آخر .

وسيم

_ 1 _

كان مراد بالنسبة لها تعويضا عن حب أول العمر, جليل وعن عشر سنوات عجاف مع سمير, وعن علاقة كانت تحقق لها المتعة أو أنها كانت علاقة إثبات الذات, والانتقام منها في الوقت نفسه, علاقة الخيار صفر, علاقة الأمر الواقع التي استمرت لمدة سنة مع عصام, ظنت أنها قد حققت أخيرا سعادتها, وقد وجدت في مراد رجلا محبا ومحترما, عاشت عامين معه لم تفكر للحظة بأنها ستفقده رغما عنها, لم تشعر يوما معه بالملل ولا بالرغبة في أي رجل آخر, كان يكفيها عن كل رجال الدنيا, لم تتوقع أبدا أن يتركها فعلا, وهو في الحقيقة لم يتركها لأنه لم يحبها أو لأنه لم يعد راغبا فيها, أو لأنه خانها أو أنها خانته, بل لأنه وجد في الهجرة إلى السويد ملاذا ومستقبلا, وهي ما كان لها أن ترافقه, هي أصلا ترفض جدا فكرة أن تكون المرأة ملحقا أو تابعا للرجل, أي رجل, هي لا تطيق فكرة أن يعيل الرجل المرأة أو أن يدفع لها مهرا كما لو كان يشتري بضاعة, مراد سعى وراء مستقبله دونها أو من دونها, كان ذلك من حقه, هو حاول أن يبقي على علاقته بها, لكن الثمن كان مستحيلا عليها أن تدفعه, كان الثمن حريتها التي ما عاد بإمكانها أن تفرط فيها, والتي صارت عندها أغلى عليها من روحها, عرض عليها أن يتزوجا وتذهب معه .

هههه أنا أتزوج, مستحيل, الدنيا ممتلئة بالرجال, فلم ارتبط برجل معين على حساب حريتي وسعادتي ومتعتي .

لكن غياب مراد أحدث في حياتها فراغا, لذا باتت لا تطيق الجلوس في البيت, كل يوم تخرج, وأول ما تفعله هو أن تذهب لكافيه لافيه, تشرب القهوة, وتجلس قليلا .

فوجئت هذه المرة بأن التلفجن مفتوح على آخره ومعظم الحاضرين مشدودون إليه, نظرت فرأت مباراة كرة قدم, لم تحتمل فغادرت, ثم لكافي آخر, كان التلفجن مفتوحا أيضا وكانت المباراة إياها والناس عيونهم مسلطة عليها .

غادرت, وظلت أكثر من ساعة تدور في كل شوارع رام الله, فقط تريد أن تطرد شحنة الضغط التي في صدرها .

_ 2 _

المسافة من رام الله إلى القدس تستغرق معها نصف ساعة بسيارتها, وهي اعتادت منذ أقامت برام الله أن تذهب أسبوعيا إلى القدس تمكث يوما بليلة عند أمها, وكانت عادة تختار مساء الخميس حتى ترافقها بنات أخيها يوم الجمعة في تجوالها بالمدينة القديمة .

فاجأتها أمها بالاتصال بها يوم الأحد, وكانت تبكي, ظنَّت أنه قد حدث لها مكروه, سألتها ما بك يا أمي, أجابتها بأن أباها قد جاءها في المنام, وكان يبكي, حزينا يسألها عن نشوى, ويعاتبها بقوله بأنها لا تهتم بها, ثم أخبرها بأنه مشتاق لها كثيرا, ويتمنى لو يراها قبل أن يموت, وأنه لو كان يقدر لسافر إليها في كندا, وقبل أن يذهب أعطاها مغلفا ابيض, طلب منها أن توصله إليها . لذا فإنها منذ الصباح وهي تتذكر الحلم وتبكي .

تابعت نشوى التخفيف عن أمها, وكانت تقول لها إنه من الطبيعي لامرأة عاشت مع زوجها أكثر من ثلاثين عاما, أن تفتقده بعد أن يموت . ظلت تحدث أمها بالجوال, إلى أن فوجئت بالاتصال ينقطع .

تفحصت الجهاز, فاكتشفت بأن رصيدها قد نفذ, فما كان منها إلا أن ذهبت إلى مكتب اتصالات لتعبيء الجوال بالرصيد, وما أن دخلت حتى لفت انتباهها شاب طويل اسمر, فتي, ذهبت إليه واشترت منه البطاقة, ومن ثم قام بتعبئة الجوال بالرصيد, سألته عن الأجهزة المعروضة, فاكتشفت بأن الأمر يحتاج وقتا للشرح, وكانت ترغب في شراء جهاز أحدث من ذلك الذي لديها, اتفقت معه على أن تعود غدا أو بعد غد لشراء الجهاز, ثم غادرت, وحين التفتت إليه رأته يتابعها بكل الاهتمام الذي تعرفه جيدا حين تجتاح الرجل الرغبة بامرأة .

_ 3 _

ركبت السيارة وأدارت المحرك, وسارت بسرعة إلى القدس, وما أن قطعت نحو عشرة كيلو مترات حتى أوقفت سيارتها, نزلت لترى ما الذي حدث, كانت "العجلة" الأمامية على اليمين قد "بنشرت", أخذت تبكي, يا له من يوم, دقائق وكانت سيارة تمر بالطريق, بعد أن تجاوزتها بأمتار, عادت وتوقفت, أخرج السائق رأسه من النافذة, وسألها :

في شي يا ست

آه البنشر, فيك تساعدني

أكيد, ولو .

سألها إن كان لديها "سبير" و"جاك", أجابته

بالطبع

دقائق وكان الرجل يقوم بإصلاح "بنشر السيارة" لها, فتشكره, وتواصل سيرها .

ما أن وصلت مشارف القدس حتى كان حاجز عسكري يقوم بإيقافها.

من عادتها أن تكون هادئة, لكن الجندي الإسرائيلي كان فجا ورزيلا قام "بنفل" السيارة وكأنها سيارة مشبوهة, رغم أنه كان قد رأى هويتها المقدسية وجواز سفرها الكندي, نرفزت وقالت : الله ياخدكو وما يخلي فيكو مخبر

شو بحكي إنت ؟

ولا شي

طيب بيروخ

احتضنت أمها بكل حنان وواستها, وتذكرت أباها فأخذت تبكي هي الأخرى, قالت لها أمها, إن تفسير الحلم هو أن نقوم بزيارة قبر أبيك ونقرأ له الفاتحة, ونوزع على روحه الكعك .

_ 4 _

عرض عليها وسيم أكثر من جهاز وهو يشرح لها مواصفات كل واحد منها, إلى أن اقتنعت بواحد منها . قالت له سآخذه على ضمانتك, وتابعت القول : يا ويلك ويا سواد ليلك لو طلع مش منيح .

رد الشاب : على ضمانتي يا ستي, وهي كرتي, بأي وقت ما عجبك رجعيه وأنا تحت أمرك .

في المساء, كانت تتصل به, لتقول له بأن الجهاز ممتاز, وأنها تشعر بالامتنان له, رد لها بالقول بأنه قد تشرف بها, وإنه يا ريت تقبل عزومته لها على فنجان قهوة في كافيه لافيه .

إنت بتروح هناك

إي معلوم, دايما

اها هي أول شي مشترك بيناتنا, أنا من زبونات هالمحل

شربا القهوة معا, وتحدثا كثيرا, كانت هي بحاجة إلى صاحب, وكان هو شابا وسيما, وما كان يمكنه أن يرفض صداقتها, فأمضيا الوقت بسعادة, ثم تحدثا بالهاتف بعد ذلك عدة مرات وعلى مدار أيام, إلى أن كان يوم الخميس, اتصلت به وقالت له :

شو رأيك نقضي بكرة الجمعة سوا, مو إنت بتكون معطل, وافق على الفور .

وهكذا صار وسيم صاحب نشوى الجديد .

_ 5 _

فوجئت حين قامت بتشغيل التلفجن, بأن كل المحطات تبث أخبارا عن القاهرة, وأن المحطات الرئيسية : العربية, الجزيرة, أم بي سي, كلها تبث بثا مباشرا من ميدان التحرير بوسط القاهرة, هذا المكان الذي يقولون بأنه يتوسط العاصمة المصرية, والحياة فيه لا تكاد تعرف النوم, فهو يغص بالناس ليلا نهارا وفي كل وقت .

كانت تخطط لرحلة أولى لمصر مع صاحبها, توقفت قليلا, لتعرف بأن هناك "ثورة" وأن ملايين الناس يرفعون شعارات "الشعب يريد إسقاط النظام" .

سارعت إلى الاتصال به:

وسيم إنت شايف شو عم بيصير بمصر, لا لا ما بدي, شو بدي أنا من وجع الراس, بتروح على الشركة وبتلغي الحجز أو بتأجله على الأقل .

وبتيجي لعندي المسا, بنقعد سوا أو بنطلع لنا شي مشوار, أنا زهقانة كتير, وضجت من هالدوشة اللي معبية التلفزيونات, ومش ناقصني شوي تطب علي سمية وألا حتى تيجيني وفاء .

سمعتي شو صار ست نشوى, سقطوا مبارك .

أنا مالي ومال مبارك والسادات, مالي ومال فتح وحماس وكل هالغم وكل وجع هالراس .

_ 6 _

كنا غائبين عن الوعي تقريبا, كم كان لذيذا وسيم, كان يبذل كل طاقته من أجل إشباعي وإمتاعي, وفي يوم من الأيام وحيث كنا في قمة النشوة, كان يقول كلاما يدل على أنه يحلق بعيدا, وإذا به يصرخ قائلا سارة, انتفضت وألقيت به من فوقي .
كما لو كنت سجانا قام بلدغه بصاعق الكهرباء
مين سارة
ارتبك ولم يعرف ماذا يقول
في لحظة التوحد والاندماج , يكون الإنسان صادقا تماما, لا مجال للكذب .
لم نكمل بالطبع فغادر
في اليوم التالي اتصل بي فسألته عمن تكون سارة
لك ما في حدا بأعرفه إسمه سارة, بس هادا كان فيلم كنت أتفرج عليه, وشكله علق براسي .
لم أصدقه بالطبع, ثم بعد أيام فاجأته بأن ذهبت لمكتب الاتصالات حيث يعمل, لأفاجأ بوجود بنت زميلته تتحدث إليه بدلع, وكان إسمها سارة .

خلعته فورا, فلم أحتمل أن يخونني وأن يكون على علاقة بأخرى, بنفس الوقت الذي هو فيه على علاقة معي .

ما كان لها أن تستمر مع هذا الوسيم, وهي لا يمكنها أن تنسى ولا أن تغفر له خيانته, ثم لم تسامح وما الذي يضطرها إلى أن تنسى, وأن تعيش مع رجل يعاشر امرأة غيرها, ثم كيف يكون بمثل هذه الوضاعة, التي لا تحترم مشاعر وإنسانية المرأة, الرجل حين تخونه زوجته يقتلها ولا يكاد يتلقى عقابا بدعوى أنه يدافع عن الشرف, أما هي فقط ستتركه, ولن تحن إليه, بل لن تعود راغبة فيه أصلا, رغم أنها قضت معه أياما ممتعة, وهي ستحتفظ له بذكرى جميلة رغم كل شيء, فقد كانت الشهور التي عاشاها معها جزء من حياتها على أي حال .

_ 7 _

لك منك خايفة يطب عليكو جوزك شي مرة وهو عندك .

تضحك وتقول

: شو هاد فيلم مصري ؟

وتتابع: ما هو كل أسبوعين ليجي مرة, بعرف مواعيده, وباتصل علي وهو بالطريق, لأحضر له أكلة بحبها, هو ما بصدق وهو يقدر يخش إسرائيل وبيظل يشتغل, لحتى يقدر يحصل له قرشين, وأنا شو بدي اعمل أظل حاطة إيدي على خدي لما يجيني بالشهر مرتين .

طيب مش هو بتعب عشانك وعشان أولادك

نعم يختي, مهو أنا اللي منعته يتعلم أو يشوف له وظيفة متل العالم والناس

مهو إنت كمان مش متعلمة .

طيب هو أن حكيت اشي, مش رضينا بالهم والهم ما رضي فينا, إنت اللي بتحكي وأنا برد عليك, أنا هيك مبسوطة وماشي حالي, مش اللي بتكون عنده مشكلة بحلها, وأنا كانت عندي مشكلة وحليتها, وألا بدك إياني أظل حاطة ايدي على خدي أسبوعين استنى هاليوم اللي يجي فيه سبعي أبو الليل هههه. ويا ريت هي مرة وحدة, مهو هيك من يوم ما تجوزته على هالحال

أسبوعين برة وليلة عندي, وحتى بهالليلة يا دوبه يقدر يقوم له بواحد ويبنشر, تقولي فتح الأندلس, بعدين مين قال لك انه ما بعمل اشي بإسرائيل, وألا هو حلال عليه وحرام علي, الله وكيلك بمروا الأسبوعين ما بتصل علي إلا لما يكون في اشي مهم, وما بحس لا بكلامه ولا بلهجته إنه مشتاق لي أو متلهف علي, يا الله هيها ماشية, لنشوف آخرتها .

منك خايفة طيب تقومي تحبلي من صاحبك ؟ !

لا طبعا

ليش بتاخدي حبوب منع حمل, أوعك صارت معي وحبلت مرتين هههههه

لا ما باخد حبوب آنا حاطة لولب, كمان قبل ما تيجيني الدورة بأسبوع ما بخلي صاحبي يجي .

طيب أنا لو حبلت من صاحبي, إلي جوز, ما حدا راح يشك بإشي, لكن إنت لو صار, يعني قصدي إنت مش متجوزة, إيش بدك تحكي .

ضحكت نشوى من أعماقها وقالت :

أنا بكندا ما عندي مشكلة, بروح هناك وبولد .

طيب ليش ما تكتبي لك ورقة عرفي وألا مسيار وألا حتى زواج متعة .

زواج, كله إلا الزواج, عقد الزواج هذا عمله الرجل عشان يتحكم بالمرأة, شوفي مثلا الرجل بيخون مرته مية مرة ولا بحكموا عليه بإشي, لكن هي لو مجرد شكّوا فيها بقتلوها, ولو حبلت مع أنها ما بتحبل لحالها يعني في أبو للي ببطنها, بتطلع هي زانية وهو ما حدا بيسأل لا فيه ولا عنه .

لو كان وسيم متجوزني بعقد شرعي كان يمكن قعدت أترجاه ابن العرص 10 سنين ليطلقني رغم إنه بيخونني مع وحدة تانية متل ما صار مع سمير, طيب سمير وطلعت منه بجنسية كندية ونص مليون دولار, من هذا شو راح اطلع, راح ياخد الجنسية ويشلحني المصاري .

تفكر نشوى في الأمر, فعلا بالنسبة لسمية ما في مشكلة لكن لو صار مع وفاء, أنا عارفة متى هالمجتمع راح يتقبل أنه الناس تعيش بحرية ومتل ما بدها, كل العالم صار هيك إلا هالبلاد, ومتى راح يتقبلوا وجود الأم العازبة, مش لما يتقبلوا المساكنة والتعايش والمواعدة .

كله راح يصير, ما دامهم بياخدوا من برة السيارة والموبايل والواتس اب راح يبطلوا عقود الزواج هيك كانت أوروبا والفلبين واليابان وهيك كانت البرازيل وكل الدنيا وصارت متل ما إحنا شايفينها اليوم .

تشرب القهوة وتدخن السيجارة , ثم تعود إلى بيتها .

هذه كانت سمية أما وفاء, فالصدفة جعلت منها ابنة عم صاحبي, وهي تسكن بنفس العمارة التي أسكن فيها, وهي لا تسكن وحدها, بل مع أهلها, وهي لم يسبق لها أن تزوجت, لكنها هههههه ليست بكرا ولا عذراء بالطبع, فهي تلتقي كلما سنح لها الوقت وحانت لها الفرصة بصاحبها, فيذهبان إلى شقته أو إلى أريحا أو بيت لحم .

ليش بتروحي أريحا وبيت لحم يا وفاء

تجيبني قائلة, هناك بننزل اوتيل وما حدا بيعرفنا, هون برام الله بنخاف حدا يشوفني ويكون بالصدفة بيعرفني, أو يشوفه ويطلع بعرفه ونورط .

طيب ما بيجي لعندك الكافي شوب

لا أعوذ بالله, كانت أول مرة إتعرفت عليه, هههه أعطاني يومها بغشيش منيح, كأنه كان مهري ومع الغشيش أو بحجته دس لي ورقة فيها رقم جواله, اتصلت فيه وقعدنا نحكي طول الليل وبعدين حتى ما حدا ياخد باله, منعته يعتب باب الكافي شوب, بلشنا نتواعد لحد ما حبينا بعض وصار إلنا 3 سنين بنحب بعض, ومش قادرين نتجوز وندفع مهر ومصاريف عرس وأجرة بيت وعفش, شو نعمل؟ بنحكي ع الجوال وبنتفق, وبتحجج لأهلي, أوعك يوم يتصلوا فيك ويسألوك إني معك وتحكي لا, كتير بحكي لهم إني عندك أو معك بمشوار وبيصدقوا .

طيب لو سألوني انك معي وحكيت لهم آه وطلبوا مني أعطيكي الهم ليحكوا معك, شو اعمل, بتدبري حالك, بتحكي لهم هي بالحمام لتطلع بخليها تحكي معك أو إنها طلعت تجيب سجاير أو أي شي .

يا بنت الأيه, منك قليلة

شو بدنا نعمل يا نشوى, هي يعني الحياة أكل وشرب ونوم !

نشأت

تحولت نشوى مع مرور الوقت إلى مرشد جنسي لجاراتها, مع أنه يفترض في الأمر أن يكون معكوسا, هن في الحقيقة يحبونها, لكنهن غير مرتاحات لكونها عازبة, وهن يغرن منها, كونها هي من تختار صاحبها, وهي من تتحكم في علاقتها به, لا يسيطر عليها بأي شيء ولا بأي قدر, فهي أولا وأخيرا صاحبة الشقة وهي غنية وليست بحاجة لأي قرش من شريكها, ولذلك فهي تستمتع بالعلاقة معه, وهن بالكاد بدأن يعرفن قدرا من المتعة, لا يحصلن عليه إلا بشق النفس, أما هي فرغم أنها حرة تماما, حصلت على حريتها بعد عشر سنوات من الأسر الزوجي ومن الاغتصاب الدائم المشروع, إلا أنها تشعر بالأسف لحال النساء في بلادها .

له له يا حرام, شفتي يا سمية, هيو صاحبك مسكوه وبحكو أنهم قتلوه .

لك مين صاحبي

معمر القذافي

آه والله كان نفسي فيه, سمعت عنه إنه كتير نسونجي

يخرب بيتهم, لك شوفي شو عم يعملوا فيه

وتضحك المرأتان

شو عم يحطوا فيه من ورا

يخرب بيتهم شو منحطين, لك هدولي ثوار وألا قطاعين طرق

والله شكله العرب على أي وش بدك تقلبيهم, كله أوسخ من بعضه .

هاتي لك سيجارة, وغيري هالمحطة .

لم تكن تلك المرة الأولى التي أشتري فيها ملابسي من محل نشأت, ورغم أنه كان شابا طويلا, أكثر من مائة وثمانين سنتمترا, أسمرا, ورغم أنه كان يعجبني إلا أني لم أفكر في أن أنشيء معه علاقة خاصة, ربما لأنه كان يصغرني بأربع سنوات, لكن ما حدث في ذلك المساء غيّر كل شيء, لدرجة أني عشت معه أربع سنين كاملة, هي أطول مدة قضيتها مع رجل حتى الآن في حياتي, طبعا بعد حياتي القاسية مع الزوج التي استمرت عشر سنوات عجاف كاملة .
كان الوقت مساء, وأنا عادة أحب أن اخرج مساء بالليل , خاصة حين يكون الفصل صيفا, لأن الطقس يكون أجمل برام الله, ولأن الليل ستّار كما يقولون, ولأني عادة ما أتأخر في النوم وأصحو

بعد الظهر, وكان ذلك المساء استثنائيا, فقد اقترب يوم عيد ميلادي, وأنا بلا صاحب, لا أدري كيف أحتفل بعيد ميلادي الرابع والثلاثين .
كان نشأت عادة كأي بائع حين أقوم بقياس قميص أو بنطلون, يقول لي حلو القميص, شو رايك تجربي هذا البنطلون يمكن يطلع عليك أحلى, ومع مرور الوقت بدأت أتأمل جسده وآلفه وبدأ يعجبني .
كان الوقت ليلا, وكنت في غرفة القياس أجرب بنطلونا فدخل عندي, لاحظت أن ما بين فخذيه منتصب, ولاحظت أنه كبير الحجم جدا .
سألني عن حياتي الخاصة
أجبته بأني مطلقة وأني لا أفكر بالزواج مجددا , وأنا الآن غير مرتبطة , وأني أريد منه أن يختار لي فستانا جميلا على ذوقه لعيد ميلادي .
أحضر أجمل ما لديه من فساتين, وحين اخترت منها واحدا , سألته عن ثمنه, فضحك وقال :
هذا هدية صاحب المحل لأحلى زبونه عنده بمناسبة عيد ميلادها
وتابع بدلال :
وألا إحنا مش معزومين يا مدام
شو بدي احكي, تسلم يا نشأت, بس هيك كتير, الفستان غالي
ما بغلى عليك شي, ألف مبروك, وعقبال المية سنة .
لا مدام هيك إنت معزوم عندي بيكون يوم الأحد الجاي بنحتفل سوا, أنا وإنت وبس .

جاء في اليوم المحدد وبيده باقة ورد وملابس داخلية, أخذتها منه ودخلت إلى غرفة نومي, إرتديتها ثم خرجت إليه, أشرت إليه أن يأتي :
تعال
سار إليها ببطء, باتجاه غرفة نومها, صارت قدمه اليمنى داخل الغرفة والأخرى ما زالت خارجها, أصابته الدهشة من عبق البخور, ضوء الشموع وباقات الورد الموزعة في كل أركان المهجع, الذي بدا له كما لو أنه مهجع شهريار, نظر إلى الحيطان فرأى صورها العارية, ثم نظر إلى السقف, فرأى آنية مدلاة فيها فاكهة وزجاجة نبيذ .
أخذته من يده وأدخلته ثم أطبقت الباب .

ليش سكرت الباب, هو مش إحنا لحالنا, وباب الشقة مسكر

طبعا, لكن رغم هيك بحب أحس إنه إحنا لحالنا هون, إنت مالك خايف ؟

هههه, لا بس حسيت حالي كأني ,,

كأنك شو ببيت العنكبوت وألا بعرين الأسد

داخل صالون ومسلم راسي للحلاق هههههه ,شو بدك تفترسيني وألا تغتصبيني هههه .

حلوة هاي اغتصبك , تعرف هي فكرة , ليش هو الاغتصاب بس للرجال على النسوان .

من تلك اللحظة اكتشفت أنه لذيذ وعنده خبرة, فصار صاحبي .

لو سمحت نشأت, بليز من فضلك, لا توريني هالمناظر, حط لك على شي محطة, مش معقول, كل يوم قتل ودمار, أي والله عمرهم العرب والمسلمين ما بيصيروا بشر, شو عاملين هالأطفال وهالمواطنين المساكين لحتى نازلين فيهم طخ ودبح .

_ ليكي هذا النظام بيحارب إرهابية .

_ نظام بيحارب إرهابية, وليش طيب ؟ لو كان النظام منيح ما كانوا صار بدهم يغيروه, والإرهابية بالك بيحاربوا عشان الناس, اشي بيضحك .

أنا أول مرة أشوف الشرطة والجيش بيقتلوا المواطنين مش الجيش عملوه ليدافع عن المواطنين من المحتلين الأجانب .

المهم سيبني من كل هالحكي, أنا كندية, وتضحك

اسمع هالحكي, والله إنك فلسطينية من راسك لساسك .

فلسطينية بس شو الفايدة, وهيني ما بحب ولا بصاحب إلا الفلسطينية, وهيني مبسوطة و24 قيراط, المهم بعدني عن السياسة, ما إلي فيها وما بدي يكون لي فيها .

طيب ولا تزعلي, بنحط على ام بي سي, بدك أغاني ولا أفلام وألا شو

لا حط على روتانا بدي أغاني الله يخليك

وبترقصي

شرط مش لحالي

موافق

يأتي صوت إليسا

"تعبت منك"

ليه كل همك في الدنيا تثبت بس إني مش مهمة والراي رايك
واني أنا جنبك ماليش ولا أي كلمة وبعيش معاك صورة وخلاص
أنا عشت عمري برضيك وباجي كتير أنا على حساب كرامتي
كان كل همي إن إنت تغلط وأسمعك بتقول حبيبتي
وعشان رضاك خسرت ناس
بقليلي برضى واستنى منك كلمة حلوة تقولها ليا
بسمعها بهدا وأنسى إني عشت معك اقل من العادية واصبر عليك

من حبي فيك هتحس إمتى إني مافيش في إيديا حاجة غير إني احبك
وان كنت ساكتة فعشان ماتحرمنيش في يوم من العيشة جنبك
وماقدرش أعيش غير بين إيديك

https://www.youtube.com/watch?v=RV64S9AeK-I

وتبدأ في الرقص

_ 4 _

يومان يفصلانها عن موعد الدورة الشهرية, تشعر بشبق لا حدود له, فقد صادف أن سافر نشأت إلى عمان بشكل مفاجيء, وذلك منذ أسبوع مضى, حتى يرتب استيراد بضاعة من الصين, وحين أخبرها بالأمر وطلب نصيحتها فيما يمكن أن يوصي عليه من بضائع, أخبرته بأنها كانت قد زارت الصين من قبل, وأنها تمتعت هناك باليوغا, ثم تنصحه بأن يوصي على إكسسوارات وأن ينوع في البضاعة . المهم أنها تريده الآن, اتصلت به, وعدها بأنه سيحاول أن يعود هذا المساء, وإن لم يستطع فغدا, قامت على الفور بتهيئة مخدعها, وبتحضير عرينها, نثرت الورود على السرير, ورشت العطر, ثم أضاءت الشموع, وأطفأت الإضاءة, رتبت كؤوس البيرة, وتمددت على ظهرها .

قامت بإبعاد ساقيها عن بعضهما بعضا, كانت حرارتها مرتفعة قليلا, فقامت بتشغيل المكيف, كانت ترتدي قميص نوم مثير جدا, دون حمالة صدر, وب"أندر وير" نهدي عبارة عن خيط وورقة توت فقط .

اتصلت به مجددا, وبدأت تخفض صوتها, كانت تموء مثل القطة, هو يعرف ما تكون عليه حين ينخفض صوتها ويصير همسا, كان يقود سيارته على الطريق السريع, فخشي أن تذهب يقظته, فقام بالتوقف على جانب الطريق, حاول أن يخرجها مما هي فيه, لكن عبثا .

كانت تأخذ بيده بين رجليها وتمررها على عضوها الحساس, الذي تضخم وصار بحجم خنصرها, فيما تهيأ لها بأن حوضها صار باتساع الكون .

قررت أن تظل تنتظره حتى لو جاء غدا, وأن تقوم بإلحاق عقوبة به لم يتعرض لها من قبل .

أغمضت عينيها وتذكرت حين كانت زبونته وتشتري منه ملابسها, خاصة الجينز الذي تعشقه, فوجئت يوما حين أخبرته بأن بضاعة الجينز لديه جيدة جدا, بل ممتازة, فوجئت به يضحك قائلا: بأنها بضاعة إسرائيلية !

دهشت وقالت: حقا, معقول ؟ !

أجابها: نعم إن الجينز الإسرائيلي معروف بجودته ويقومون بتصدير كميات كبيرة منه, وتعتبر مصانع الخياطة الإسرائيلية, على درجة عالية من الإتقان, ولأنها كانت تعتمد على الأيدي العاملة الفلسطينية, فسرعان ما أخذ أبناء بلدنا عنها الحرفة, فانتشرت محلات الخياطة في الخليل وغزة بكثرة, بعضها واصل استيراد القماش الإسرائيلي, في حين بعضها فضل أن ينوع مصدر بضاعته, إن كان من الأردن أو مصر, أو حتى من الخارج مباشرة .

ردت بالقول, إسرائيل ليست متفوقة بالقوة العسكرية وحسب إذا, هم أيضا معروفون عالميا بقدراتهم في الزراعة, من حيث مكننتها ومن حيث تهجينها, وابتكار أصناف مختلطة من الفاكهة واستصلاح الصحراء وما إلى ذلك , ومعروفون بالطبع بالصناعة العسكرية التي تصدر للكثير من الدول, وما بقي إلا استخراج الغاز من البحر حتى تصبح إسرائيل "دولة عظمى" !

حين شاهد مدى الدهشة في عينيها, عرض عليها أن يأخذها بجولة وراء الخط الأخضر, وكان يوم كان فيه قد اتفق مع بائع الجينز الإسرائيلي أن يذهب إليه ليأخذ منه نماذج جديدة من البضاعة, فأخذها معه, فكانت فرصة لها أن تتجول برفقته في تل أبيب وعلى شاطيء البحر وأن تمر بيافا, وأن تأكل السمك في العجمي, وبعد أن مر على بائع الجينز وأخذ بضاعته منه, عرض عليها أن يذهبا إلى كوفي شوب بحيفا, المدينة الليبرالية المختلطة, حيث شربا البيرة معا, ورقصا مع جموع الشباب الذين كانوا يغنون ويرقصون في الشوارع, وحين اقترب الليل من الانتصاف, تحركا عائدين إلى رام الله, لكنها في الطريق استبد بها الشبق, وكانت على موعد كمثل هذا اليوم مع اقتراب موعد الدورة, فما كان منها إلا أن حوطت رقبة نشأت وهو يقود سيارته بيديها وأخذت تقبله بعنف .

انحرف الرجل بسيارته عن الطريق ودخل في طريق ترابي, إلى حيث كان هناك حرش, ولم يبتعد كثيرا, حيث كانت هي في الأثناء قد انتقلت للمقعد الخلفي وتمددت على ظهرها, فاتحة ساقيها, تموء مثل قطة .

أوقف السيارة ودون أن يفتح بابها, اندلق هو الآخر للمقعد الخلفي, والتصق بها . وما كادا ينتهيان, حتى كانت هناك إضاءة شديدة مع سيارة عسكرية, تسرع نحوهما, وقبل أن تصلهما, تجيئهما الأوامر بأن يخرجا من السيارة رافعين أيديهما فوق رأسيهما, ففعلا .

أخذوا منه هويته ورخصته, وحين عرفا أنه عربي, ظنوا بأنهم وقعوا على صيد أمني ثمين, وأن الرجل يقوم باختطاف امرأة يهودية, وقد زاد لديهم الشك حين نظروا في جواز سفرها وعرفوا انه كندي, يهودية/كندية إذا, أو ربما كندية/إسرائيلية .

لا, قالت لهم , بل كندية/فلسطينية, وأخرجت بطاقة القدس . حينها طلبوا منهما الانتظار, وبعد أن أجروا اتصالاتهم, وبعد أكثر من نصف ساعة, أفرجوا عنهما .

***

حين جاء بعد منتصف الليل, كان الشبق قد استبد بها, وكانت قد شربت معظم زجاجات البيرة التي كانت قد أعدتها للسهرة بينهما, وكان هو على أي حال قد شرب زجاجتين على الطريق, لذا ما أن دخل عليها ووجدها ممدة في عرينها مثل لبؤة على أهبة الاستعداد لافتراسه, ولأنه يدرك بأن مثل هذه الظروف ستنقلب عليه متعة مضاعفة, فإنه سرعان ما تمدد بجوارها, واحتضنها, وخلال ثوان كان عاريا .

لم تكن لبؤة ولا قطة, كانت في تلك الليلة أشبه "بكلبة" ما أن يدخل شريكها بها, حتى تغلق عليه المنافذ وتتشبث به, ولا تسمح له بالانسحاب حتى بعد أن يفرغ ما في جعبته وتهمد همته .

حاول أن يقف مجددا, وأن يعيد الكرة وهو ما زال في معزله, لكن ذلك كان صعبا جدا عليه, بل كان مستحيلا, توسل إليها أن تتركه لمدة دقيقة واحدة, ثم يعود, وافقت على مضض .

ومن يومها صار يحرص على أخذ إجازة من العمل لمدة يومين كل شهر, وكف بعدها عن الطلب منها بأن يراها ولو مرة واحدة في حياته عارية تماما, كما ولدتها أمها .

_ 5 _

منذ وقت صارت زيارتها الأسبوعية إلى القدس تبدو شديدة الوقع على نفسها, فإضافة إلى الحواجز الإسرائيلية الكثيرة والمشددة, صارت الإجراءات منذ نهاية العام مضاعفة, ولا أحد يمكن له أن يتوقع ما يمكن أن يحدث له, فربما اعترض طريقها المستوطنون, فألقوا عليها الحجارة أو حتى أطلقوا عليها النار, وربما فوجئت بإطلاق النار من قبل الجنود على فتى أو فتاة بالقرب منها بحجة الطعن بالسكين, بل حتى يمكن أن يحدث أمامها أو قربها حادث دهس متعمد على الخلفية القومية, كما اعتادت الشرطة الإسرائيلية القول, فتعلق بالطريق, هذا إذا لم تتعرض إلى التحقيق أو إلى ما هو أكثر من ذلك خاصة وأن سيارتها من رام الله .

وما زاد الأمر سوءا, أن أمها بدأت تتحدث إليها بحديث لم تعهده فيها من قبل, فما أن تصل إليها بعد توجس ومعاناة الطريق والحواجز, حتى تستقبلها بفتور, لم تكن تحس به من قبل, ثم وبعد أن تجلس إليها وبعد السؤال المعتاد عن حالها وإن كانت مبسوطة أم لا أو إن كان ينقصها شيء أم لا, صارت تسألها :

يا أمي ما في أخبار جديدة, ما بدك تحكي لي إشي .

إشي متل شو يا ماما

يعني يا بنتي, صار لك عشر سنين مطلقة, طيب قلنا انك تعقدت من الزواج عشان تجوزت وإنت صغيرة, وبعدت عنا, وكنت تحبي ابن الجيران, طيب لإيمتى .

لإيمتى شو يا ماما, مش فاهمة عليك

يا بنتي يا حبيبتي, مش معقول تظلك هيك, من غير زوج, يعني أول سنة, تاني سنة, صار لك عشر سنين على هالحال, ما هديت نفسك, ولا راجعت حالك, طيب قلنا إنه كتير بنات ما بتتوفق بأول زواج, إنت تطلقت وبعدك صبية, بعمر 28 سنة يعني اللي كانوا بعمرك كتير بالبلد ما كانوا تزوجوا, وأجاك كتير, وإنت ترفضي, ما نسيت زواجك الأولاني, هلا يا أمي إنت على أبواب الأربعين, يعني مين بده يفكر يتقدم إلك بعد هيك, إلا ختيار بالسبعين .

يا ماما يا حبيبتي, أنا خلص جربت الزواج, وما بدي أعيده, أكم مرة حيكت لك هالحكي .

يا أمي ما بنفع تظلك عايشة هيك لحالك, بعدين تعالي هون, شو هاللبس اللي إنت لابساه, هذا هو السبب, لبسك هاد هو السبب, مرة بأواخر الثلاثينات بتلبس متل بنات الجامعة, مين بده يتطلع إلك غير الشباب المراهقين اللي ما بفكروا إلا بالحرام, لا بفكروا بالزواج ولا بالسترة, تحجبي يا أمي أحسن, بلكي اقتنع فيك حدا من صحاب أخوك الشيخ, وستر عليك .

شو هالحكي يا ماما, أنا لو بدي أتزوج كان من أول ما تطلقت, حتى كان ظليت بكندا, أو حتى تزوجت هون, ما بدي هيني عايشة ما ناقصني شي .

تحتد أمها كثيرا فيرتفع صوتها :

كيف ما ناقصك شي, هي الست بس بتحتاج تاكل وتشرب, ما بتحتاج زوج على سنة الله ورسوله, يحميها ويصون شرفها, ويلبي طلباتها, وألا إنت خلص, لكن مش مبين عليك, لا بتصلي ولا بتصومي ولا إنت حاطة ع راسك ولا لابسة متل الناس .

تقوم بتغيير الموضوع, لأن الاستمرار بالنقاش لم يعد يقنع أمها ويزيد من الضغط عليها:

طيب يا ماما, لو في حدا طلبني بادرس الموضوع, خلص باوعدك إني أفكر, كله ولا تزعلي يا ست الكل .

_ 6 _

كان الوقت مساء, وكانت الساعة تشير إلى الثامنة, حين رن هاتفها الجوال, تناولته ونظرت إلى رقم المتصل , فقرأت:

ما من رقم

أي أن المتصل يستخدم خدمة إخفاء الرقم, ولا يريدها أن تعرف من المتصل, لو كان أحد أصدقائها ذوي الأرقام المخزنة بجهازها, أو لم يكن من أصدقائها وكانت هذه المرة الأولى التي يتصل بها, فلن تعرف الرقم لتحاول الاتصال به مجددا, أو حتى أن يكون بإمكانها أن تستخدم الرقم في معرفة بيانات المتصل عبر خدمة TrueCaller

لذا تجاهلته ولم ترد

لكنه عاود الاتصال بعد أن استنفذ الوقت دون أن ترد, مباشرة .

شعرت بانزعاج مضاعف, فالمتصل يخفي رقمه, مع أنه من حق من نتصل عليه أن نعرف من يتصل بنا لنختار إن كنا سنرد أو لا نرد, ثم هو يلحّ ويعيد طلب الاتصال مرة أخرى ودون فارق زمني يذكر بين المرتين, وكأني موظفة عنده_هكذا خاطبت نفسها, ولتضع حدا لهذا الإلحاح فتحت الخط في المرة الثالثة .

جاءها صوت لا تعرف صاحبه, يقول لها:

حضرتك السيدة نشوى العتال, كندية الجنسية من أصل فلسطيني, مولودة بالقدس, بتاريخ 20 _5_1977, ساكنة بشارع الإرسال برام الله, جواز سفرك رقمه ,,,

قاطعته بالقول: نعم أنا, لكن إنت مين ومن الآخر, شو بدك مني ؟

أجابها بكل هدوء:

أنا العقيد حازم, مخابرات فلسطينية, بدي أدردش معك ربع ساعة, لو تسمحي, وشو بتحبي تيجي عندي المكتب وألا بتفضلي في مكان عام وألا شو ؟

أجابته وهي متفاجئة: وشو بدك مني ؟

لا أبدا ما في شي مهم ولا في أي مشكلة, بس إنت فلسطينية لكنك كندية, بدنا ندردش سوا بشكل عام, ما في اشي محدد, أنا حبيت اتصل فيك مباشرة حتى ما ياخد الموضوع الشكل الرسمي ونبعت لك استدعاء وهيك اشي .

ردت: لا ما في داعي, هيك أحسن, إنت وين بتشوف أجي لك ؟

قال: بالمكتب يعني الموضوع بيصير رسمي, وما في داعي حدا يشوفك, مش حلوة إلك إنه تستدعيك المخابرات ومش حلوة إلنا انه نستدعي مواطنة كندية, كمان ما بأفضل بمكان عام, كافي شوب أو غيره, بنخاف حدا يصورنا بجواله, والفيسبوك يشتغل, فإذا ما عندك مانع, تفضلي عندي بالبيت, وكأننا أصدقاء أو أقارب, بندردش ربع ساعة على فنجان قهوة, وخلصنا .

ردت بالقول: اوكي ما في مانع, ايمتى بناسبك ؟

أجاب: يوم الخميس الجاي مثل هلا, شو رايك ؟

قالت: ما في مشكلة, أعطيني العنوان .

كانت أمام باب شقته في الموعد المحدد, فتح لها الباب, دخلت, فتفاجأت بأنه وحده, أشار إليها بالجلوس, ثم سألها ماذا تشرب .

قالت له قهوة سكر خفيف, ضحك غامزا بالقول: لو تحبي تشربي اشي ثاني, ما في مشكلة, فهمت إشارته وأكدت عليه القول: لا أريد قهوة, وسكر خفيف لو سمحت .

ذهب إلى المطبخ, فيما هي بدأت تتأمل المكان, صورة معلقة, عرفات ورابين وكلينتون, رجال امن فلسطينيون وإسرائيليون مجتمعون, ضباط ارتباط .

بعد قليل جاءها بالقهوة, إلى جانب علبة بيرة وكأس له هو .

مع أول رشفة للقهوة, كان هو يدلق بجوفه بعضا من البيرة, ثم يضع الكأس على "الترابيزة" ويقول: ايش أخبارك ست نشوى, إن شاء الله مبسوطة برام الله, صار لك فترة, بتجينا التقارير عنك, انك ما بتشتغلي, فينا نعرف من وين بتصرفي .

أجابته: مما أخذته من طليقي .

تابع: طيب لاحظنا انك عايشه وحدك, صحيح في واحد بيزورك بشكل متواصل, واضح إنه صديق عزيز أو انكو على علاقة, لدرجة انك بتروحي معه عند أولاد عمنا .

قاطعته سائلة بسذاجة تنم عن عدم معرفة فعلا: مين أولاد عمكو

ضحك قائلا: جيراننا, الطرف الآخر

ردت بالقول: قصدك اليهود, الإسرائيلية, والله أنا شايفه إنهم صايرين اخوتكو مش أولاد عمكو .

رد قائلا: راح اعتبرها مزحة, ما علينا, وحتى مرة كمشوكو في وضع مش ولا بد بالحرش, بعد ما حودتو بالسيارة عن الطريق العام .

ردت بالقول: اهاها عارفين كل اشي يعني ؟

تابع قائلا : بيجي لعندك هالشب وما بينام يعني مش عايشين سوا انتو ولا متعايشين وإلا كان صرتو مخالفين للقانون, إحنا ما عنا مشكلة لكن إنت عارفة المجتمع, عموما ما في قانون بيمنع الواحد يستقبل ضيوفه ببيته, كمان الشب ما عليه ولا أي شبهة أمنية ولا إنت كمان, بس تقاريرنا بتقول إنك كل أسبوع بتروحي القدس وبتمري ع الحواجز, وبتشوفي أخوك, تقاريرنا بتشتبه إنه نور الدين تحريري, ايش رايك إنت ؟

أنا شو عرفني, وشو يعني تحريري ؟

يعني منتسب لحزب التحرير, تبع الخلافة, ما سمعت عنه .

ضحكت كثيرا, وقالت: أنا ما بعرف ولا حرف بالسياسة .

قال: عارف يا ست نشوى, وعارف إنه لو صرنا صحاب إنت بتستفيدي وإحنا بنستفيد .

سألته: كيف صحاب يعني وشو بدي استفيد ؟

قال: أولا بتروحي وين ما بدك وبتعملي شو ما بدك ولا حدا بيقدر يعترض طريقك ولو صادفت أي مشكلة حتى لو مخالفة سيارة, بتتصلي في وأنا ما بخلي حدا يسألك .

وإحنا بنستفيد, يعني لو سمعت كلمة هون أو هناك, لو عرفت صحاب أخوك, أي شي بلفت انتباهك بالقدس, بتتصلي علي وبتحكي لي أول بأول, ولو ما في عندك مانع, بنلتقي كل أسبوع, وبنسهر لنا سهرة حلوة, ولو بدك هلا بنسهر للصبح, هي البيرة ولو بدك مشروب تاني موجود .

ثم مد يده وقبض على يدها, تملصت منه, فأحتضنها, وحاول أن يقبلها, انتفضت ووقفت

وصاحت في وجهه: شو هاد ؟

رد بوقاحة : هذا من هداك, ما بيصير أكون صاحبك متل مراد وألا وسيم وألا نشأت ؟ تملصت منه بصعوبة بالغة , ثم تناولت حقيبة يدها وفتحت باب الشقة وخرجت .

_ 7 _

هذه المرة كانت اشد وقعا بكثير, فلم يكتف الشيخ نور الدين بالسلام على أخته وسؤالها إن كانت تحتاج شيئا, وهي تعرف أنه صامت تجاهها, لأنه قابل بالمعادلة أو الاتفاق غير المكتوب بينهما, أن لا تفتح موضوع الإرث بالبيت, مقابل أن لا يتدخل بشؤونها, رغم ذلك كان هو الذي يعبيء رأس أمها بما صارت تطالبها به, من أن تتحجب وأن تفكر بالزواج, كان نور الدين, يجيء إليها عند أمه, بعد صلاة ظهر الجمعة فيسلم ويدعوهما لتناول طعام الغداء معه وزوجته وبناته, وبعد الغداء الجماعي مباشرة يذهب لينام, فيما هي تعود إلى رام الله قبل أن يصحو, أما هذه المرة فقد فوجئت به, ومنذ أن وصلت, يدخل عليها غرفة أمه, فلا يمد يده, بل يطرح السلام, ويقف أمامها, وكانت بيده عصا:

اسمعي يا نشوى, أنا عمري ما تدخلت في حياتك لا بالأول ولا بالتالي, وقلت لحالي اتركها يا شيخ: شهر شهرين سنة سنتين, بس تهدا من صدمة الطلاق, بتراجع حالها, والله ببعت إلها ابن الحلال, وبيصير كل إشي طبيعي, لكن الحكاية طولت, صار لك هيك عشر سنين, وإحنا هون عرب, مسلمين, مش في أوروبا ولا في أمريكا, إلنا عاداتنا وتقاليدنا, والنا ثقافتنا والاهم إلنا دينا, ممكن أعرف ايش بتعملي في رام الله, وليش ساكنة فيها أصلا, وكمان ساكنة ليش لحالك, الناس هون بالقدس وهناك برام الله بشوفوكي بهالبس اللي ما بيليق بست عمرها أربعين سنة, والمشكلة عايشة لحالها, الناس بتتساءل, طيب هي نشوى تزوجت, معقول مطلقة وبتلبس هاللبس, طيب ليش بتلبس هيك ولمين, أعوذ بالله من الشيطان الرجيم, إن بعض الظن إثم, لكن جل الظن مش إثم بل حذر ودرء فتنة, بصراحة اسمعي ومن الآخر هالحال ما بمشي معي, قدامك وهيني بحكي قدام أمك, حل واحد من اتنين, إما بتيجي تقعدي مع أمك هون بالقدس, أو بتتزوجي وبتظللك برام الله متل ما بدك, طيب احكي لك حتى تشوفي قديش متساهل معك أنا, خدي أمك تسكن معك, وبكون إسمه مش عايشة لحالك, وما حدا بقدر يحكي عليك, مع إني مش مقتنع ما دام ما إلك لا شغل ولا مشغلة ليش قاعدة برام الله أصلا .

بدا لها كلام نور الدين بمثابة تهديد جدي, دفعها إلى أن تفكر في مغادرة رام الله, بل البلاد كلها, فلم تعد إلى شقتها بل من القدس إلى مكتب السفر, حيث حجزت تذكرة سفر إلى أوروبا, وبعد أيام قليلة كانت تطير إلى بلجيكا .

أياد

_ 1 _

اووة ما ألذ البيرة البلجيكية, شربتها مثلجة بلوبي الفندق الذي نزلت فيه, تشرب وتتأمل البيرة التي تحبها عادة, لكنها كانت هنا ببروكسل لها مذاق آخر, ما أن فرغ كأسها من البيرة, حتى جاء إليها النادل مسرعا بزجاجة أخرى, دهشت لما يبديه الفندق لها من كرم أو أنه قلة ذوق, فهم يسجلون ما تطلب على حساب غرفتها, قرأ النادل الذكي علامة الاستفهام على وجهها, فسارع بالإشارة إلى الرجل الجالس في الركن والذي بالكاد ترى ملامحه, لوحت له شاكرة, ودعته إلى حيث تجلس, جاء مسرعا وقبل أن يجلس رفع كأسه وصاح قائلا بصحتك

اوة مش معقول أنت عربي

وفلسطيني كمان

لم تصدق : معقول

طبعا هنا سيدتي

نشوى

أنا إياد

هنا سيدتي العرب كثيرون, خاصة المغاربة, ثم العراقيون وهنا يوجد فلسطينيون أيضا, نسيت وألا ما سمعت إنهم كانوا يسموننا بلجيك

لا ما سمعت وين هاي

بالأردن, ويعود ذلك إلى أن ما بين هولندا وبلجيكا يشبه ما بين فلسطين وإسرائيل من نزاع على نفس الأرض, لم يكن هناك أصلا بلجيكا, وهي عبارة عن اتحاد فدرالي نصف ولاياته تقريبا وهي ولايات الشمال تتحدث هولندي والجنوب بيحكي فرنسي .

ولأن هولندا دولة مؤيدة جدا لإسرائيل فان بلجيكا تؤيد فلسطين .

كان حديثه ممتعا, وكانت البيرة التي تحبها لذيذة فشربت كثيرا, حتى ثملت, بعد أن اقترب الفجر قاما, كل إلى غرفته, لكنه قام أولا بإيصالها لغرفتها من باب اللباقة, وكان من باب اللباقة أن تدعوه لشرب القهوة ليصحو, فدخل معها, ثم اقترب منها وحضنها, قبلها, استسلمت له وناما معا .

ظلت معه دون تخطيط, وبعد يومين عرض عليها الفكرة المجنونة, أن يذهبا إلى هولندا أولا بالقطار من بروكسل للحدود ثم ب"البسكليت" إلى ماستريخت, هناك كان له من الغجر أصدقاء, فذهبا إليهم وأمضيا معهم يومين كانا من أمتع الأيام التي عاشتها في حياتها, فالغجر متعففون عن النقود يأكلون أي شيء يجدونه حتى لو منته الصلاحية, ثم يعيشون معا بكل بساطة ودون تعقيد وبلا قوانين تقريبا .

_ 2 _

على غير العادة, كان رجال الشرطة منتشرين في كل مكان, في محطات القطارات والأماكن العامة, وفي الشوارع المزدحمة, وعلى غير العادة أيضا, كانوا يدققون في جوازات سفر وبطاقات الهوية الخاصة بالمسافرين أو العابرين للحدود, في المطارات ومحطات القطارات وحتى الحافلات .

وكأن باريس ليست مدينة في فرنسا فقط, بل بدت كما لو كانت عاصمة أوروبا كلها, تذكرت باريس, الشانزلزية, برج أيفل, المطاعم, راشد الماجد, الحدائق والسهرات, شهر العسل الجميل إلا من صحبة سمير, وتساءلت:

كيف يعقل أن يجيء هؤلاء القتلة إلى هنا بالتحديد, يتركون وراءهم الحكام المستبدين, يتركون اللصوص والمخبرين, يتركون جيشا يحتل القدس, ويأتون إلى هنا ليقتلوا أناسا ما أساءوا لأحد بشيء, أغمضت عينيها ورأت شيوخا ومنقبات, رأت سحرة ومشعوذين, رأت أخاها نور الدين, يرفع يده مهددا:

ما في تعيشي لحالك برام الله, إما بتتجوزي وبتعيشي برام الله, أو غيرها وين ما بدك بذمة جوزك, أو بتيجي عندي هون بالقدس .

رأت الشيخ عبد الله يركض وراءها, بيده سكين, كما لو كان يركض وراء دجاجة هربت من ذبحها على يديه .

رأت الجنود على الحواجز, المتدينين اليهود يصطفون أمام حائط البراق, يتمتمون بكلمات غامضة ويهزون أجسادهم كما لو كان بهم مس شيطاني .

رأت المستوطنين يلاحقون سيارتها, يرمونها بالحجارة ثم يطلقون عليها الرصاص .

رأت مشانق تنصب في كل مكان .

رأت كل مشاهد القتل والدمار, التي حرصت على أن تتجنب رؤيتها طوال أربع سنوات, في سوريا, ليبيا, العراق واليمن, تتابع أمامها دفعة واحدة .

انطلقت صرخة مدوية من أعماقها, حضنها إياد وسألها:

مالك نشوى, إنت غفيت وألا شو ؟

لا أنا خايفة يا صاحبي

لك شو في من شو خايفة

من كل شي .

أدرك أنها في حالة نفسية سيئة, فأخذها إلى اقرب بار, وظلا يشربان إلى أن شعرت بأنها قد هدأت, شكرته لاهتمامه بها, ثم سألته إن كان يريد أن يعود معها إلى الأوتيل أو أنه يفضل أن يمضي وقتا أضافيا في البار, لم يجبها بل نادى على النادل, دفع له الحساب, ثم غادرا إلى الفندق, وفي الطريق رن جرس هاتفها, كانت ابنتها على الخط تبكي وهي تخبرها بأن أختها مريضة جدا, مجرد أن سمعت الخبر, طلبت من إياد أن يحول وجهته بدلا من العودة للفندق بالذهاب إلى مكتب الطيران, حيث حجزت بأقرب موعد, وطارت إلى مونتريال .

الفصل الرابع

_ مونتريال 2 _

عصام

_ 1 _

بهدوء وشيئا فشيئا, كان دخان أبيض, يهبط عليها من النجمة البعيدة في السماء, وما أن يقترب منها حتى تتحدد ملامح فتاها المشتهى, بعينيه الواسعتين, وقميصه المفتوح من الصدر, ليترك لشعره أن يخرج محاولا أن يصافحها, كانت تغمض عينيها وتلاعب شعيراته, فتشعر بنشوة لا حدود لها, وبنطاله الجينز الأزرق الذي يضم ما بين ساقيه, فيكاد يظهر ما عليه من طول وضخامة كانا أثارا الرعب في أوصالها يوم رأته أول مرة .

تتمطى في سريرها العريض مثل ملكة نائمة, فيما الفتى تحت السقف مباشرة, يفتح فمه معاتبا, تشعر بدقات قلبها تدق بسرعة, حتى يكاد قلبها أن يقفز من صدرها فيلتصق به, اقترب حبيبي, انس كل ما كان واحضني فقد طال الشوق إليك .

كما فعل في المرة الأولى, قبل عشرين سنة, بقوة مد ذراعه وطوق خصرها, ثم وفي خطف البصر, كان يطبق بشفتيه على شفتيها, فتنتشي وترتعش مثل عصفور, انزلق فجأة في بركة ماء, استسلمت له هذه المرة, لم تقفز كغزالة منتفضة وتهرب بعيدا عنه, لكنه قبل أن يقذف بداخلها ماء السكينة, فوجئت برنة الماسج على الموبايل, سرعان ما دفعت به إلى أن يختفي, نادت عليه بروحها, لكنها أدركت بأنها قد صحت من نومها .

لم تكلف نفسها حتى بفتح الموبايل وقراءة الرسالة, فقد شعرت بامتعاض ممن أرسلها, والذي بذلك قطع عليها حلما جميلا تود لو تظل نائمة سنينا بطولها تحلم به, لملمت أطرافها وما كاد أن يهرب منها من ذكريات, ونهضت متجهة إلى الحمام, حيث خلعت قميص النوم الأبيض, الذي تحب أن ترتديه, في ليال تظن بأن صاحبها لا يجيء إليها فيها, أما حين تكون موقنة من مجيئه فتنام عارية تماما, على أي حال هي ترى في قميص النوم هذا كما لو كان جلدها الأبيض, الذي ترتديه في أيام الشتاء الباردة في هذه البلاد, ولأنها تخجل من أن يراها أحد آخر, حين لا يكون معها صاحبها, فتفضل أن ترتدي شيئا, فطالما قالت لي : جسدي هذا لن يراه سوى حبيبي, أنه أغلى ما لدي .

فتحت دوش الحمام فانهالت عليها المياه كما لو كانت بردا وسلاما عليها, جلست في "البانيو" أكثر من ساعة كاملة, لا تفعل شيئا, بين الغفلة والصحو, كما لو كانت تحاول أن تستعيد ذلك المشهد, الذي يجيء كل مرة دون أن يكمل دورته, فيتم قطعه قبل النهاية بلحظة, لتتوتر أعصابها, ولو كان الأمر بيدها لأكملته كما تحب هي وتشتهي, لكنها رغم كل ما فعلته بالدنيا

التي أخذتها منذ عشر سنوات بالطول والعرض, إلا أنها ما زالت تشعر بتعاسة لا حدود لها, كما لو كانت التعاسة قدرا عليها, لمجرد أنها ولدت أنثى _ امرأة في عالم الشرق .

تسمع طرقا على باب الشقة, فتقوم متثاقلة, على مهل, تتناول المنشفة المعلقة على الحائط وتلف بها جسدها المبلول العاري, وتفتح الباب .

منذ أن رأت عصام وهي لا تعرف لماذا يذكرها دائما بجليل, ربما لأنه طويل القوام ورشيق مثله, أو لأنه عاطفي وحنون ويحبها كما كان جليل, تذكر حين التوت قدمها وهي تنزل درجات عتبة المنزل, كيف انطلق كالصقر واختطفها من السقوط, حتى لا تنكسر ساقها, ثم حملها وطار بها إلى المستشفى, لكن رغم ذلك ترى فارقا بين الرجلين, رغم أن كل ما يظهر من ملامح عصام تشبه تلك التي كانت لدى جليل, ما ظهر منها وما خفي, ربما أنه لا يحب التماثيل مثله, أو لأنه ليست لديه لوحات لنساء عاريات مثل تلك التي كانت لدى جليل, لكن أسوأ ما فيه هو أنه يعمل مع سمير !

_ 2 _

شعرت بالملل, فعصام مشغول هذه الأيام عنها مع طليقها, ولي نعمته, ويبدو أنهما يستقبلان بضاعة من الشرق, فقد مرت ثلاثة أيام لم تره فيها, تناولت ريموت التلفجن, وقلبت بالمحطات, ما أروع التكنولوجيا, صار العالم أكثر تواصلا وتداخلا, تكون في آخر الغرب وتتواصل مع الشرق كأنك فيه, فالقمر الصناعي يبث لها محطات الشرق الأوسط بلغتها العربية, خطرت ببالها أن تشاهد روتانا, عسى أن تعيش لحظات مع إليسا, لكن الريموت اللعين توقف لحظة عند محطة الجزيرة, فكان المشهد المروع, والخبر يقول بأن سلسلة تفجيرات وقعت في مطار بروكسل وفي محطة مترو مالبيك, يا إلهي تذكرت يوم سافرت على عجل من مطار بروكسل إلى مونتريال قبل ثلاثة أسابيع فقط, حين أخبرتها ابنتها بأن أختها الصغرى مريضة, هذا يعني بأن مرض ابنتها ربما أنقذها من الموت, فربما لو أنه تأخر وصادف أنها سافرت اليوم, لكانت قد ماتت مع الآخرين . أو أنها ذهبت ضحية في محطة المترو حيث أنها انطلقت أكثر من مرة من هذه المحطة رفقة إياد, حين ذهبا لماستريخت وبرلين .

اووة إياد

تناولت الموبايل وبحثت عن اسمه واتصلت به .

إياد أنت بخير, الحمد لله, خفت عليك يكون صار لك شي .

شو سافرت بسرعة, ما إنت عارف إني سافرت عشان بنتي, بعدين قضينا 3 شهور, لفينا كل أوروبا وانبسطنا سوا كتير .

ما أظن أنا هلا إطمنت على بنتي ومبسوطة بكندا, ما بعرف بعد وقت ممكن ارجع لأوروبا أو لا .

صحيح هي حلاوتها انه الواحد بيلف 30 دولة بالسيارة أو القطار وبسهولة, لكن إنت عارف إنه أهم شي عندي الصحبة .

سمعته يقول لها : يعني إنت لقيتي صحبتك بمونتريال .

ضحكت وقالت : مهم كتير إياد انه ما نقطع التواصل

باي

_ 3 _

صديقتها الكندية الوحيدة بكندا, بريجيت, تعرفت عليها في النادي الرياضي, وجرى التعارف بين المرأتين بالصدفة, ففي يوم زلت قدم نشوى وهي على حافة بركة الماء, وفي اللحظة التي كانت تقع فيها, في البركة, مدت لها تلك المرأة وكانت بلباس البحر, على حافة البركة تقوم بدهن جسدها بالكريم المضاد لأشعة الشمس,يدها, وأخرجتها من بركة الماء . تفاجأت في الحقيقة نشوى, رغم أن الأمر لم يكن خطرا, فوقوعها في البركة لا يعني شيئا, فهي أصلا بالمايوه, كما أنها تتقن السباحة جيدا, لكنها تفاجأت مما أبدته تلك المرأة من "نخوة" تكاد تكون عربية .

من يومها صارت صديقتها رقم واحد في هذه البلاد الباردة, تسبحان معا, وتلعبان التنس الأرضي وحتى تنس الطاولة معا, وتركضان معا, ثم تطور الأمر بأن بدأتا تتزاوران, دهشت بريجيت من الوضع المالي لنشوى, وتساءلت كيف يجيء المهاجرون إلى بلادنا وخلال بضع سنوات فقط, يتفوقون علينا, فيصبح بعضهم أكثر ثراء منا .

ردت عليها نشوى بالقول, بأن ما تتمتع به بعض دول الغرب من رفاه اجتماعي ومن تقدم على صعيد الضمان الاجتماعي يعدم الحوافز لدى الكثير من الناس, بينما من يجيء مهاجرا من بلاد فقيرة, لا تحترم حقوق الإنسان الشخصية, يملأه التفاؤل ويجيء مندفعا, وهو أصلا معتاد على حياة التقشف في بلاده, وعلى شظف العيش وقسوة العمل, لذا يعمل بنفس الطاقة التي كان يعمل بها هناك, لكن مكافأته هنا مضاعفة, لذا فإنه يراكم الوفر المالي, وفي فترة قصيرة تصبح لديه ثروة, سرعان ما يقوم باستغلالها في أن ينشيء لنفسه عملا خاصا, مكتبا أو شركة أو ورشة أو حتى مزرعة وذلك حسب اختصاصه . ثم هناك من يستفيد من لغته الشرقية, عربية كانت أو سواها, ومن معرفته ببلاده الأصلية, وبعد أن يحصل على الجنسية الكندية أو الأمريكية يقوم بدور جسر التواصل, كما يفعل "زوجي السابق" ماي إكس هازباند _ قالتها على مضض, حيث أنشأ شركة استيراد وتصدير, يقوم من خلالها بتبادل البضائع بين الشرق والغرب, وبين الغرب الأمريكي والغرب الأوروبي . وهكذا خلال أقل من عشرين سنة صار ثريا .

تعجبت بريجيت, وسألت صديقتها الشرقية الجديدة, كيف تزوجت به, بل كيف قبل أن يتزوج, نحن عادة هنا, يفضل الرجل الثري أن يتزوج زواجا تجاريا, أي امرأة ثرية مثله أو ابنة رجل أعمال, وبعضهم يفضل أن يصاحب, فكل شيء محسوب هنا بدقة, فالرجل الثري يعتبر مجنونا لو أنه تزوج امرأة فقيرة أو من عامة الشعب, يمكن أن تقاسمه ثروته بعد خلاف بينهما أو رغبة أحدهما بالانفصال عن الأخر, وهنا كل أشكال العلاقة بين الرجل والمرأة تتم على أساس المستوى الاجتماعي, مستحيل أن تقابلي رجلا ثريا, صاحب شركة تزوج من فتاة موظفة بشركته أو بسوبر ماركت مثلا, الموظف يرتبط بموظفة والعامل بعاملة والثري بامرأة ثرية .

ردت عليها بالقول : بأن الأمر صار بالنسبة لها بشكل مختلف, فالرجل الشرقي حتى بعد أن يحصل على الجنسية الغربية وبعد أن يعيش فيها سنينا, وبعد أن يثرى, يظل يحتفظ "بشرقيته" فهو يفضل أن يتزوج من فتاة عذراء, بكر, وأن ينجب منها أبناء ليس هناك أدنى شك بنسبهم الجيني له, كما أنه يريدها شرقية مطيعة, تلبي كل احتياجاته ورغباته الجنسية والإجتماعية دون أن تطالبه بالمثل . وهو لا يفكر بالانفصال عنها حتى لو رغب بغيرها, ذلك أنه لو بعد وقت ملّ منها, صاحب الكثير من النساء, وهي لو رأته يخونها بأم عينها, لن تطالبه بالطلاق, فخيانة الرجل لزوجته عندنا في أحسن أحوالها هي خطأ, يحمّل الكثير من الناس الزوجة نفسها مسؤوليته فيقولون لم لا تشعبه, لو أنها تقوم على إشباعه لما فكر في غيرها, ولما شعر بالحاجة إلى أخرى, ثم لا تنسي أن الشرع نفسه في ديننا, يحلل للزوج أن يتزوج بأخرى وثانية وثالثة .

وقعت على بريجيت هذه المعلومة كالصاعقة, وحتى تتأكد, سألتها, أهناك محاكم تقوم بتوثيق زواج الرجل المتزوج من امرأة أخرى؟

أكدت لها بالقول :طبعا, وهي المحاكم الشرعية, وتعتبر عقود الزواج من أربع نساء صحيحة, بل وشرعية ومشروعة, وقد أزداد في بلادنا التبشير بها والدعوة إليها, هذه الأيام .

دهشت بريجيت وواصلت سؤال نشوى :

أنت تمزحين, تقصدين محاكم دينية, يمكنك أن ترفعي عليها دعوى قضائية فيضعونهم في السجن .

أبدا يا صديقتي, بل محاكم مدنية, قانونية, ومن يوضع في السجن هو من يتم القبض عليه وهو يمارس الحب مع شريك, أو من يثبت أنهما أقاما علاقة جنسية دون عقد تلك المحكمة !

تقصدين من يقوم بعملية اغتصاب لآخر, رجلا كان أو امرأة أو عدة رجال يغتصبون امرأة أو عدة نساء يغتصبن رجلا .

لا, أبدا, بل لو أنه قبض على رجل وامرأة متحابين أو حتى مخطوبين في خلوة, يمارسان الحب, تقام عليهما قضية زنا, يجرّمها القانون ويحكم عليها بالسجن, رغم أن الأمر يتم برضاهما معا, وفي مكان مغلق, أي لا يخدش الحياء العام, ولا يؤذي أحدا لا ماديا ولا معنويا .

بقدر ما استهجنت بريجيت مما قالته لها نشوى عن "تعدد الزوجات" في الشرق, تعجبت نشوى مما ذكرته لها صديقتها الكندية, من أنهم في بلادها, يعتبرون الفتاة التي تتجاوز عمر الثامنة

عشرة وتظل عذراء, بأنها معقدة أو قبيحة أو غريبة الأطوار, وأنه لا يوجد هناك رجل ولا امرأة يرتبطان معا دون أن يكون لكل منهما علاقات أو تجارب سابقة, بل إنهم صاروا يستوعبون ويتفهمون أن يقوم احدهما أو كلاهما وهما متزوجان أو متصاحبان, بإقامة علاقات عابرة, one night affair بحجة أنها تقوم بمهمة التحفيز والتنشيط للعلاقة بينهما, أو تحافظ عليها وتبقي على استمرارها, فالشريك يتفهم أن يقوم شريكه أو شريكته بإقامة علاقة جنسية مع رجل أو امرأة لمرة واحدة أو لليلة واحدة, بهدف المتعة, فالشريك يحب لشريكه أن يستمتع, كما لو كان يقوم برحلة أو يشرب كأسا, أو يؤدي وصلة رقص مع شخص آخر .

هكذا بكل بساطة, سألتها وهي مندهشة جدا .

نعم

أجابتها, ثم تابعت القول بأنها هي شخصيا وهي المتزوجة, تمارس ما يسمونه ب one night affair, أو ما يمكن وصفه عندنا بالعلاقة العابرة, وأنها عبر هذا الشكل من العلاقة, مارست الجنس مع أكثر من خمسين رجلا بهذه الطريقة, وللذكرى فإنها تحتفظ بمقاطع يوتيوب لها مع شركائها في العلاقة العابرة, ثم فتحت لها اللابتوب وبدأت تستعرض لها تلك العلاقات مع رجال لا تتذكر أسماءهم, فوجئت نشوى بأن أحد هؤلاء كان صديقها عصام .

جن جنونها, هل تعرفين اسم هذا الرجل .

قالت لها لا, لكنها تعرف أنه عربي مهاجر, يقيم هنا منذ سنوات طويلة, بل إنه مولود هنا, لدرجة أن ليس هناك الكثير يعرفون أنه عربي .

سألتها ومنذ متى أقمت معه ذلك اللقاء .

أجابتها بأنها لا تذكر بالضبط, لكن ربما قبل أربع أو خمس سنوات .

هدأت نشوى قليلا ثم عادت لتسألها :

ألم تكررا الأمر حديثا ؟

أجابتها : لا بالطبع, وإن كنت أذكر بأني قابلته صدفه قبل أشهر, وعرضت عليه موعدا لليلة أخرى, لكنه رفض قائلا بأنه مرتبط بامرأة وأنه سعيد معها كثيرا .

قامت نشوى بتقبيل بريجيت, وقالت لها: شكرا لك, ثانك يو فري ماتش .

استغربت المرأة الكندية مما فعلته صديقتها, لكنها تفهمت عاطفية صاحبتها فهي أولا وأخيرا تظل امرأة شرقية .

ما قالته لي

_1_

هي لا تحب أن تفكر بالماضي, بل إن شئت قل هي لا تهتم بشيء, تعيش حياتها بشكل عفوي جدا,وبكل بساطة, أما أنا فبمجرد أن عرفتها, ومنذ اللحظة الأولى, ولأني خبير بالنساء, فقد أيقنت بأنها مختلفة, بل تكاد تكون ذلك النموذج من النساء الذي عشت طويلا أرغب في أن التقي به, امرأة لا تؤمن وحسب بالمساكنة, بل هي فعلا تتعايش مع من تسميه "صاحبها", منذ أن تطلقت, قمت من فوري بإجراء حسبة فورية فوجدت أنها عاشت تقريبا نصف عمرها كطفلة على مقاعد الدراسة حتى الثانوية العامة, 18 سنة, ثم العشرين سنة التالية, عاشت منها عشر سنين في جحيم الزواج الوثير, سجن 5 نجوم, والعشر سنين التالية بحرية وببساطة .

وجدت نفسها وهي ابنة العتال الفقير في مدينة القدس, لا تهتم بشيء في حياتها مما يريده لها أن تهتم به أهلها, أمها وأبوها وأخوها الأكبر, لا تحب المدرسة, لكنها تعشق جمالها وتطيل النظر في المرآة تتأمل جسدها الفتي الرشيق الجميل, كذلك هي تشعر بأنها تحلق في السماء حين ترافقها نظرات زملائها من طلبة الثانوية, في طريق الذهاب والعودة من المدرسة, وعلى عكس زميلاتها لا تشعر لا بخوف ولا بخجل, ذلك أنه من الطبيعي أن ينجذب الشاب للفتاة والعكس, ولو كان الأمر بيدها, لتعرفت على كل أولئك الفتية, وهي كانت ما كادت تعود إلى البيت وتندس في فراشها, وما أن تغمض عينيها, حتى كانت تحضر لها صور الفتية واحدا واحدا, لتختار أطولهم وأكثرهم وسامة, ذاك ذا الجسم الرياضي, فتلقي بنفسها في حضنه, وما هي إلا لحظات حتى تكون يدها قد اندست بين فخذيها, فيخرج منها كلام خفيض وغنج, وبعد لحظات ترتاح بعد أن ترى البلل قد رطب الأندر وير .

تداهمها صور من الماضي عنوة, لذا ما أن تحدثت إليها, وارتاحت لي, حتى كانت تسترسل بالحديث معي, فتسرد لي أهم أحداث قصتها منذ أن نشأت قصة الحب بينها وبين إبن الجيران, حتى هذه اللحظة .

أما حين سألتها إن كانت تسمع مغنيات الفيديو كليب العرب, قالت إنها تسمع إليسا وتعجبها, وحين أخبرتها أني معجب بإلين خلف, بدت لي أنها تسمع بهذا الاسم لأول مرة, أرسلت لها بعض روابط أغانيها, وقلت لها إنه ليس غريبا أنها لم تسمع بها من قبل, مع أن إلين خلف كانت واحدة من رواد الفيديو كليب, وهي تقريبا في مثل عمرها, لكن ربما أن السبب يعود إلى أن انطلاقة إلين عام 1996 بأول فيديو كليب لها " خايفة منك " كان في العام الذي تزوجت فيه نشوى وذهبت إلى كندا حيث عاشت عشر سنوات متواصلة, وما أن عادت إلى البلاد حتى كانت إلين خلف تنزوي بعد 8 كليبات بدأتها عام 1996 وأنهتها عام 2005 !

وكأنه كان مقدرا أن لا تجتمع إلين ونشوى في بلادنا معا . فما أن تظهر تلك حتى تغترب هذه وما أن تعود هذه حتى تنزوي تلك .

أرسلت لها رابط

https://www.youtube.com/watch?v=MAIxyCJ_GsM

عز علي تهجرني

عز علي تنساني

تغدر بي وتأمرني

إني ارجع لك تاني

سمعتها

ثم أرسلت لي تقول

لقد شعرت بالغيرة منها

لم اعرف ماذا كانت تقصد هل تشعر بالغيرة من حبي للمغنية اللبنانية أم من جمال جسدها وحيويتها أم من السعادة الغامرة التي تبدو عليها وهي تغني وترقص كما لو كانت ساحرة .

طلبت منها صورة شخصية لها, فرفضت, سألتها عن السبب, فأجابت :

بعد بكير, كمان عشان تظلك محتفظ لي بصورة أحلى في خيالك .

قلت لها بخبث: طيب وكيف راح أعرفك لما ألاقيك بالمطار .

ضحكت كثيرا وردت ردا أكثر خبثا قائلة :

راح تعرفي من الشامة السودا اللي فوق صرتي .

فوجئت:

ماذا تقولين شامة سوداء فوق صرتك, أتمنى لو أراها الآن .

ردت قائلة: يمكن ما عمرك تشوفها

وتابعت بأسى: أنا كان نفسي إنه ما حدا يشوف جسمي عاري غير جليل, وانه هو اللي ياخد عذريتي . وكما لو أن بوابة الذكرى انفتحت على مصراعيها , تابعت تقول:

مرة كنت على شط البحر بالمايوه البكيني, وما شفت إلا واحد عم يصور فيني وأنا مستلقية على ظهري, فورا ركضت عليه واخدت منه الكاميرا .

طلع بعمل إعلانات وشاف الشامة وانهبل, قال شو فكرتها بتاخد العقل, لمحلات الوشم .

حاولت أن استفزها فقلت لها حين أرسلت لي عددا من صورها بأنها عادية كما كانت ترد علي حين كنت أشيد بجمالها, وأنها ليست حسناء أو بالغة الجمال, بدت أنها تتقبل الأمر, لكنها حين هممنا بأن نقفل المحادثة قالت المهم إني مش بشعة, بما يعني بأنها تتأثر جدا حين تقابل من لا يهتم بجمال جسدها, فهي تعتبر جمالها وجسدها أهم ما لديها .

فاجأتني كثيرا حين قالت بأن الحرية تبدأ بحرية الجسد , وأنها هي شخصيا تعتبر جسدها أغلى ما لديها, لذا فقد دار بيننا نقاش طويل حول هذه النقطة .

_2_

الجسد يا صديقي ملك خاص لصاحبه, أي حق مهما بدا ضئيلا لشخص آخر فيه, يعني قدرا من العبودية, نحن نمقت العبودية الآن ونستهجنها رغم أنها كانت موجودة قبل مائتي عام, بل ربما ما زالت هناك مناطق أو أماكن بعيدة عن عيون الحضارة فيها بعض من أشكال العبودية, أنا أرى أن الكثير من مظاهر العبودية تنكشف في العلاقة بين الزوج والزوجة وفق نظام الزواج والأسرة الشرقي, خاصة في العالم العربي والإسلامي, جسد المرأة ليس لها, بل هو للزوج ليستمتع به, ويكون كذلك منذ أن يدفع ثمنه على شكل مهر, مكفول بعقد البيع والشراء, المسمى عقدا شرعيا . يحلل هذا العقد أن يمارس الزوج حقه في ذلك الجسد بغض النظر عن رغبة الزوجة في اللحظة التي يريدها فيها, فحسب العقد الشرعي يحال الأمر للفقه الشرعي, فيجبرها على أن تقبل أن يمارس فيها رغبته بغض النظر إن كان يمارسها معها أم لا , ويشرع العقد أن يتزوج رجل سبعيني ببنت 18 سنة, ويشرع العقد ممارسة العلاقة الحميمة دون أن يشترط الحب أو الرغبة المتبادلة والمشتركة, فقط مجرد الإيجاب والقبول, ووفق نظام الأسرة وتعقيداتها يفرض المجتمع زواجا أبديا على كليهما .

قاطعتها بالقول: لكن جسدك هذا قد "تعامل" معه العديد من الرجال, كما لو كان طعما, تصطادين به المتعة كما تقولين, فردت قائلة بما فاجأني:

هل تعلم بأنه, طوال عشرين عاما نمت خلالها مع زوج ومع خمسة رجال آخرين, لم أخلع ملابسي كاملة ولم يرني احدهم عارية تماما, ولست أدري في الحقيقة السر وراء هذا الأمر, فأنا لا أحب أحدا أن يرى جسدي بجماله الأخاذ سواي, ورؤية جسدي الذي يشبه تمثال مايكل أنجلو بروعته وجماله, أمر في غاية الأهمية, وليس من السهل علي أن أمنح هذه المتعة التامة والكاملة لأي أحد, بل أنا لم أفعل هذا حتى اللحظة, ولا أدري لماذا, أيعقل أني ما زالت أنتظر جليلا, أيعقل أني ما زالت آمل في أن تأتي لحظة في حياتي ولو قبل موتي بدقيقة واحدة, وأتوحد معه جسديا كما توحدت معه روحيا, أيعقل أني ما زالت أحفظ وعدي له بأن لا يرى أحد سواه جسدي عاريا تماما, أجبت بالقول: يبدو أن هذا هو التفسير المنطقي والذي يؤكده أنك ذهبت إليه بعد أن تطلقت وتعريت أمامه تماما كما لم تفعلي مع أي رجل صاحبته من قبل .

عادت لتتابع القول :

أنا لا أطيق فكرة الزواج الأبدي, وبقدر ما احتقر الخيانة, وأظن أن العلاقة الحرة أي غير المكتوبة بعقد, والتي تقوم على توافق الطرفين فقط, هي الأخلاقية, لأنه ما من سبب يدعو رجلا وامرأة أن يبقيا معا ويمارسان الجنس معا وأحدهما أو كلاهما لا يرغب بالآخر, كذلك ليس هناك من أولاد أو أسرة تفرض شروطها الاجتماعية عليهما البقاء معا .

أخلاقيا الزواج الحر, إن شئت أن تسميه هو أخلاقي لهذا السبب, وفي اللحظة التي فيها يملّ أحد الطرفين من الآخر, ينفصلان دون أي إكراه أو مشكلة ودون أدنى صعوبة, وهكذا نحرر عواطفنا ومشاعرنا من الضغط والزيف والكذب .

أنا أتوقع وأتفهم بأن يكون هناك تعدد أزواج للمرأة وتعدد زوجات للرجل ولكن بالتتابع وليس بالتوازي كما تشرّع ذلك بعض الأديان وبعض المجتمعات . يعني ممكن المرأة تصاحب بحياتها أكتر من رجل لكن مش بنفس الوقت وما يحق أو يجوز للمرأة يجوز ويحق للرجل, مو إنه بيجوز للزلمة شي وللمرة شي تاني .

يسمون إذا بيت الأسد عرين, وصارت كلمة عرين مرادفا للأمان, وكأن عرين الأسد أكثر أمانا من البيت الأبيض, لماذا الناس تخشى الأسد وتحتقر الأرنب, أليس لأن الأسد قوي, وما هو مصدر قوة الأسد, أليست قوته تكمن في جسده حيث القوة والعضلات, الأنياب والمخالب, أنا أيضا مصدر قوتي جسدي, بفضله حصلت على المال, لماذا تزوجني سمير ومنحني الجنسية والمال؟ أليس بسبب جمال جسدي, لماذا كان المراهقون يكتبون لي رسائل الحب, أليس لأنهم أغرموا بجسدي, يا صديقي أنا قوة عظمى بهذا الجسد, لدي قنبلة إغواء نووية .

كل أصحابي حين كانوا يتعرفون علي كانوا يغرمون بجسدي, وبجسدي هذا أقبض على مفاتيحهم, أتحكم فيهم, جسدي الذي كان يوما مصدر ضعفي وسبب استلابي وعبوديتي صار مصدر قوتي وجبروتي, لذا فإن غرفة نومي وهي بيت جسدي صارت عرين هذا الجسد الجبار !

في شقتي هذه وفي مخدعي هذا, هنا في غرفة نومي أنا,أنا سيدة نفسي, لا أحد له أمر علي أو سطوة أو نفوذ, لا أحد يتحكم في, أنا حرة, أمارس ما أرغب به لا ما يرغب فيه شريكي, لذا ترددت حين دعاني مرة نشأت لأن نمضي ليلة ما في محله, على أن يغلقه علينا, كما أني رفضت فكرة أن يستأجر لنا شقة خاصة. أنا أنثى حقا, لكني لست أية أنثى, أنا كما لو كنت أنثى الأسد, اللبؤة, التي هي سيدة البيت, وهي التي تقوم بجلب الطعام لصغارها, فيما الزوج راقد بالبيت . في مخدعي أنا سيدة الموقف, لست في بيتك ولا في غرفتك, ولست زوجتك, أنا شريكتك, ولو تطلب الأمر لدفعت لك, في الحقيقة أنا التي توفر المكان, لكني أقبل بالشراكة, ولست أعكس الموقف الذكوري بموقف أنثوي مستبد, رغم ذلك, ورغم أني أحيانا أحس كما لو كنت أعذّب شريكي حين أوحي له بأن يبذل كل ما يستطيع وكل طاقته وربما فوق طاقته لإشباعي, أحس كما لو كنت سادية إلى حد ما, لكن الأمر ربما يحتاج إلى هذا, فحتى هم شركائي لم أسلم منهم, رغم كل جبروتي وسطوتي, خاصة حين كان الأمر مع نشأت وعصام, وهما يشتركان في كون عضويهما الذكريين كبيري الحجم نسبيا, بحيث كنت أتوجع وقت

الممارسة, فكنت أصرخ وكان صراخي يزيدهما عنفا, فلا يشبعان من القسوة الممتعة, ولا يكفَّان عن طلب المزيد !

لكن لا بد لي من أن أظل أحافظ على رشاقتي, أنا أصلا لست نهمة, ولا أحب الأكل كثيرا, كذلك لابد لي من أن أواصل التردد على "الجيم" أينما كنت وحيثما أقمت .

شقتي هذه هي عالمي الخاص وإذا كان جسدي هو أثمن ما لدي فان شقتي هي بيت جسدي, أو عرينه, وبالأخص منها غرفة نومي التي يتحرر فيها جسدي من كل شيء, من الملابس والخجل ومجاملة الناس وقوانين المجتمع, فيها ينطلق ويمارس سحره وجبروته, فهي وطنه وملاذه وهي مهده .

_3_

فرطت ضحك لما حكيت لها غصب عنك لكن برضاكي, بدي أخليك تحبيني, بعد أن قالت لي بأنها لا تؤمن بالحب وهي واقعية, واقعية كتير بالحب لا تحب كلام الحب أو الغزل ولكنها تحب أن تحس الحب, بكل التفاصيل والإشارات وعبر الممارسة, حيث لا مجال للكذب .

وكان من عادتها أن تلتقي الرجل الذي يعجبها, مرات عديدة تفحص خلالها رغبتها تجاهه, وتقول إنها تصاحب الرجل حين تقتنع به وحين يقودها حدسها إليه, ذلك الحدس الذي نادرا ما كان يخونها ولم يخطيء معها إلا مرة واحدة, وحدث ذلك في بروكسل, حيث تعتبر علاقتها بإياد غلطة أو علاقة عابرة ما كان يجب أن تكون, وربما كانت طبيعة السياق الذي إلتقته فيه, حيث ذهبت لأوروبا بقصد السياحة وكسر حدة الثنائية الحادة التي عاشت حياتها في إطارها وهي ثنائية رام الله _ مونتريال, هي السبب في ذلك, لذا هي تعتبر إياد نزوة في حياتها أو علاقة عابرة, وكانت خطأ .

وحين تقتنع بالشريك, وقبل أن تمارس معه الحب أول مرة كانت, تتبادل معه الخواتم, فتلبس خاتمها في يدها اليمين, حتى تبعد عنها المتحرشين من الرجال, الذين يقتنعون فقط بأن المرأة مرتبطة حين تكون زوجة, وفي يدها خاتم بخنصر يدها الشمال, هي تريد أن تقول لهم بأنها مرتبطة وفي نفس الوقت تقول لنفسها بأنها ليست ملكا لرجل وإن كان لها صاحب لا تخونه ولا يخونها .

قالت لي إنها تبكي على تفاصيل صغيرة, بعد أن ظننت أنها ليست عاطفية, وقالت إنها تشتاق لبنتيها ولكن لا تفكر بالعيش معهما لأنها تعودت على الحياة المستقلة .

وقالت: أنا أحب أن أعيش وحدي لأن الزمالة والرفق والعيش مع حدا, بده تنازل, لوحدي باعمل شو ما بدي, مجرد ترافق حدا بمشوار لازم تتفق معه على تفاصيل المشوار, لوين يكون, وين تقعد, متى تروح, وحتى تزامل حدا بشغل لازم تتفق معه على كل شي بخص الشغل, ما فيك تقرر وحدك وهو ينفذ مثلا, وحتى تعيش مع حدا, ما فيك تنام وقت ما بدك ولا تصحى

وقت ما بدك, ترقص تغني, تفتح تلفشن, تاكل أو تشرب أو تدخن, أنا مثلا ما بحب البس فساتين, بحب الجينز كتير, لكن عشان صاحبي بيحب الفساتين, بلبس له فساتين, فالعب وحدك تطلع راضي !

هي أحبت حياة الغجر, لأنهم يعيشون حياتهم دون قيود وفي مجتمع حر, هي كما لو كانت غجرية لكنها تعيش إما في مجتمع غريب, أو في مجتمع منغلق, كما لو كانت سمكة في شبر من الماء . قلت لها حياتك هكذا ستظل صعبة, لا يخفف من وطأتها عليك سوى انك من مواليد برج الثور _ أي ترابية _ متواضعة لا تتطلبين في حياتك, ولو كنت أسدا أو حوتا أو دلوا أو حتى قوسا, لكانت حياتك أشد وقعا وقسوة .

الحرية مع الاستقرار في مجتمع يفتقر للحرية انتحار, وكما لو كان الإنسان يلقي بنفسه في النار, ثم يستغرب من ارتفاع حرارة الجو !

رغم أنها لا تحب أن يشعرها أحد بأنه يشفق عليها, وهي مقتنعة كل الوقت بأنها امرأة قوية, وأنها حققت ما تريد وأنها مبسوطة (قالت لي هي مبسوطة وليست سعيدة), أدركت الفرق ولم أحاول أن أحرجها أو أن أهزها من العمق بالقول لها صراحة بأنها شخصية قلقة, لأنها تاهت بين الشرق والغرب, هي معزولة في الغرب, غير مندمجة, وفي الشرق تشعر كما لو كانت لصا تسرق ما هو حقها أصلا, مال الناس ومالنا, ماله أخي وماله عمي, وجاري وتبع السوبر ماركت ,,,

الناس هنا ما بتحكي معك غير بالقطارة, جارك بس بيحكي لك هالو, هاو أر يو, الوقت عندهم بمصاري, طيب أنا شو أعمل, حتى صاحبي بيجي لعندي كل يوم بعد يوم ساعتين, خطف, كل حياته شغل بشغل, وطول الوقت حاطط أيده على قلبه خايف إنه سمير تهف ع باله انه ينتقم منه بسببي .

برام الله بتسلى كتير مع جاراتي, حتى لما بدي اطلع مشوار وصاحبي مش فاضي أو بالشغل باحكي مع أي وحدة من جاراتي بتروح معي, ما بمل, بروح القدس, ونابلس, وبلف بالشوارع فيك تحكي مع أي حدا بالشارع هون .

كان من الطبيعي لو أنها بقيت بكندا أن تعيش مع صديق بحرية, لكن وحيث أنها اضطرت للعودة إلى البلاد, صحيح أنها لم تعش بحرية طويلا هناك, لكنها سمعت ورأت وعاشرت النساء والرجال, الذين كانت تلتقيهم في الحفلات, وفي الأسواق وحتى جيرانها, قليلا ما كان هناك أزواج بعقد كاثوليكي, بل إن واحدة من صديقاتها حدثتها عن أنها أقامت علاقة مع أكثر من خمسين رجلا وفق صيغة one night affair, في الحقيقة هي لم تبق هناك في كندا, لأن أهلها طلبوا منها العودة, وحسب, وليس لأن إقامتها مع عصام بمنزله كانت تحرجها, وليس لأنها كرهت المكان الذي عاشت فيه سجنها الزوجي, بل وإضافة إلى كل هذا, بداخلها حنين لا يمكنها أن تقهره أو أن تنكره أو حتى أن تتجاهله إلى بلدها .

لكنها بقدر ما تحب بلدها اكتر من البلد الذي تحمل جنسيته الآن, وتصر على أن تعرّف نفسها كفلسطينية, فإنها تكره التخلف والجهل والقهر والقمع فيه, سواء ذاك الذي يمارسه المحتل أو ابن البلد .

ما أجمل التقدم والحرية واحترام خصوصية الإنسان في بلاد الغرب, وما أجمل بلادنا, لكن الغرب يكون أفضل لو أنه كان وطننا, وبلادنا تكون أجمل لو أنها صارت أكثر حرية, وحيث أنه يستحيل أن يكون الغرب وطننا, فلا خيار لنا إلا أن نغير من أحوالنا .

لماذا صادف وأنها لم تصاحب إلا الفلسطينيين, هنا في القدس ورام الله الأمر طبيعي ولكن في كندا وحتى أوروبا, ويقينا بأنها لو لم تلتق بعصام من أول يوم لبحثت عن عصام آخر عن أي فلسطيني بكندا لتصاحبه !

ماذا تفعل, أينما ذهبت المعاناة في انتظارها, هل تعود إلى رام الله أم تبقى في كندا, لقد باتت مثل حورية البحر التي نصفها سمكة ونصفها إنسان, أو مثل آلهة الإغريق نصفها بشري ونصفها آلهة, هي اختلط فيها ما هو شرقي بما هو غربي, لم يكن خيارها أن تعيش نصف عمرها هنا ونصف عمرها هناك , ولم يكن خيارها أن الحواجز قد زالت بين الشعوب في عالم اليوم, بحيث اختلطت الثقافات والحضارات, ولم يستغرب الناس هناك أن تتسلل إليهم ثقافة الغرب وقيمه وحتى سلوكه وهم يعتمدون عليه في كل شيء, يستوردون منه السيارة والتلفزيون والثلاجة والكونديشن,اللابتوب والموبايل, يستوردون الشيكولاتة والهامبورجر والشيبس, وكل شيء وفي الوقت ذاته يريدون الإبقاء على نظام الحكم المستبد وعلى كل أشكال الاستبداد السياسي والاجتماعي, بما في ذلك العلاقة الخاصة بين المرأة والرجل, كيف تكون ولماذا .

رغم انفهم, سيفرض العالم عليهم التغير, بعد أن زالت الحدود بفضل العولمة, فقد كانت أفكارنا خاصة بنا ومختلفة عن أفكار وعادات الآخرين بسبب الحواجز التي كانت بين الدول والقوميات والعوالم . لذا كانت معظم قوانيننا وعاداتنا إنما هي عربية_أسلامية, وإذا كان العرب يشكلون أقل من 5% من عدد سكان العالم, والمسلمون اقل من 20%, فإن المنطق يقول بأنه علينا أن نأخذ بعين الاعتبار بأننا لا نعيش في هذا الكوكب وحدنا, وإنه لو اعتبرنا أن الشكل الوحيد للاقتران يعني الزواج بين الرجل والمرأة هو ذلك الناجم عن العقد الشرعي وفق الشريعة الإسلامية, أو ما يقال عادة على سنة الله ورسوله, فإن ذلك يعني بأن أكثر من 80% من سكان العالم يمارسون الزنا, وأن أبناءهم الناجمين عن زواجهم إنما هم أولاد حرام !

ماذا تفعل في رام الله وكأن هناك قوى خفية اجتمعت على ملاحقتها والتنكيل بها, منها من لا يطيق رؤيتها, ومنها من يريد افتراسها, لو مشت في الشارع سارت مظاهرة وراءها, إذا تعرفت على رجل توسمت فيه وعيا فاجأها واثبت لها بأنه منحط, لا يتورع عن اغتصابها, إذا دخلت محلا ما, لا يخجل أكثر من شاب في أن يلوح لها, أو أن يقل أدبه بأي شكل, وإن ذهبت

لكندا قتلتها الوحدة, تضطر لأن تصادق نساء لا تشعر بالكثير من الود تجاههن, وحين تذهب للسوبر ماركت أو للسوق تشعر بأن ليس الطقس هو البارد بل القلوب والنفوس وحتى الشجر, لا أحد يوحي لك بأنه يكن تجاهك بأي شعور إنساني, هذا إذا لم يقم بالعكس من ذلك وعبّر علنا عن رفضه لمجرد وجودك في بلده .

ربما لهذا السبب وحتى تملأ الفراغ الذي يحيط بها والذي تغلغل بداخلها في الوقت ذاته, سافرت إلى الصين لتغيير الجو وللتعرف إلى أناس جدد, مارست اليوغا وحصلت على وقت مستقطع في حياتها القلقة, وقت فيه راحة بال وهدوء نفس, ولهذا ربما كانت فاجأتني حين قالت بأنها تفكر في زيارة مصر, فهي الآن تبحث عن ملاذ آمن, تعيش فيه بحريتها في هدوء, مكان يكون فيه الناس "في حالهم" لا يتدخلون بفجاجة في حياة غيرهم, ليس عن توجس ولا عن بغض أو عدم اكتراث أو اهتمام بل عن قناعة وعن وعي .

سألتها إن كانت قد زارت مصر من قبل, أجابت بلا, بل وأضافت بأنها لا تحب مصر ولا المصريين, هذا يعني بأننا لن نلتقي, قلت لها, ففاجأتني بالقول: أنا بديت أفكر إني أزور مصر, سمعت إنه شرم الشيخ حلوة, لكن ما باعرف إيمتى يمكن بالشتا .

تماما تتمثل فيها هنا صفات برج الثور من حيث هو بطيء, وكثيرا ما قالت لي أنا بطيئة, ما بتسرع وباخد قراراتي ببطء من دون استعجال .

لكن في مصر أخبرتها لو أردت أن تصاحبي أحدا يمكنك أن تكتبي معه ورقة عرفي, رفضت تماما, فهي بالضد التام من أي ورق بين رجل وامرأة يريد أحدهما أن يعاشر الآخر . ناقشتها بالقول, بأن الورقة يكتبها عادة الشبان من باب الاحتياط, ذلك أنه لو حدث وأن اكتشف أمرهم أقاربهم يقولان بأنهما متزوجان على سنة الله ورسوله وها هي الورقة بينهما ومع كل واحد نسخة منها, أو إن داهم خلوتهما بوليس الآداب, أو لو أنه حدث حمل واختلفا على نسبه كما حدث مع احمد عز وزينة, أما إن لم يحدث شيء من كل هذا وقررا الانفصال فيقومان بتمزيق الورقة وكأن شيئا لم يكن, فيمضي كل واحد في طريقه .

_ 5 _

كنت في مطار القاهرة قبل موعد وصول طائرتها بنصف ساعة, جلست على المقعد انتظر, دقائق وكان جرس إعلان وصول رسالة واتس أب يدق لي, فتحتها:

كانت الرسالة منها بالطبع, تقول بكل خفة دم, وكأن مجرد وصولها أجواء القاهرة قد أصابها بفيروس خفة الدم المصرية :

أنا جيت .

هرعت إلى بوابة القادمين, وما هي لحظات وكنت أراها أكثر جاذبية بكثير مما كانت تبدو لي في الصور .

ذهلت حين رأيتها خارجة من قاعة القادمين ترتدي تنورة جينز قصيرة وتي شيرت قصير جدا, بينهما يظهر الوسط عاريا, بما فيه الصرة, ركضت إلي وتركت العربة التي كانت تضع فيها حقيبتها وتدفعها أمامها .

وما ان اقتربت مني حتى أشارت إلى الشامة فوق الصرة :

متأكد هلا إنه أنا أنا ؟

واحتضنتني, وقالت: سعيدة جدا بالتقائك .

انتابني الخجل وأنا أتلفت حولي, لكني أظهرت للناس وكأنها زوجتي أو أختي .

تناولت مقبض حقيبتها وقمت بجرها فيما كانت هي تمسك بذراعي ونحن متجهان نحو تاكسي كريم الذي أحضرته خصيصا لينقلها إلى الفندق .

أوصلتها للفندق, وشربنا معا فنجان قهوة, ثم سألتها إن كانت لديها الرغبة في تناول العشاء أم أنها تفضل أن تستريح وتنام, قالت لي بأنها مرهقة فالرحلة كانت طويلة, ولم تنم في الطائرة فقد كانت متشوقة لتراني ولترى أم الدنيا, التي باتت تحبها بعد أن غيَّرت رأيها المسبق فيها بسببي, لذا فهي تريد أن تأخذ حمَّاما دافئا ومن ثم تنام, على أن أعمل حسابي بأن أحضر باكرا في الصباح لتبدأ برنامج اكتشاف القاهرة .

سألتها إن كانت تريد أن تزور الأهرام, القلعة, مصر القديمة, فلم تظهر أي اهتمام بهذا, ولا حتى أنها تريد أن تزور الأقصر أو أسوان, هي غير مهتمة لا بالآثار ولا بالتاريخ المصري, هي متشوقة للسفر إلى الغردقة وشرم الشيخ !

استغربت قليلا, ولكن بحكم معرفتي بها سرعان ما تبدد استغرابي, هي امرأة تهتم بكل ما هو حسي, وليس بما هو معنوي, لذا هي تعيش حياتها يوما بيوم دون تخطيط, تماما كما لو كانت مولودة بمنتصف برج الثور وليس في آخره, وهي تفاجئك بموقف أو باتخاذ قرار بلحظة يمكنه أن يهدم كل ما كانت هي تقوم بإعداده في شهر, سألتها كيف قبل عصام أن يعيد العلاقة الخاصة معها بعد أن تركته عشر سنين, أقامت خلالها أربع علاقات مع رجال مختلفين, لترد بالقول, بأن هذا شأنه هو, اسألني عني أنا, أنا عملية, حين اضطررت إلى أن أترك كندا أول مرة, ووجدتني وحيدة في رام الله بحثت عن صاحب, وحين سافرت إلى أوروبا بقصد السياحة, ورغم إني كنت على علاقة لمدة أربع سنين بنشأت, إلا أني وفي لحظة وجدت نفسي أعيش مع إياد ثلاثة شهور, والصدفة دفعتني لأن أسافر من أوروبا لكندا, حيث التقيت مجددا بعصام, بدأنا علاقة جديدة كما لو كنا نعرف بعضنا بعضا لأول مرة, وفي الحقيقة _ كما قلت لي أنت مرة _ لا يمكنك أن تقطع النهر نفسه مرتين, اعترضت وقلت لها ليس أنا من يقول هذا بل هو الفيلسوف اليوناني هيرقليطس, تابعت قائلة, المهم أنا صاحبته هذه المرة وأنا بعد عشر سنين من الصحبة السابقة وبعد 4 تجارب, صرت أكثر خبرة وتجربة, كما أني وهذا هو الأهم أصاحبه وأنا لدي شقتي

الخاصة بي, ولست مقيمة كضيفة عنده, كنت أشعر ولو من بعيد بأنه علي أن أقدم له شيئا مقابل استضافته لي !

من يدري إذا أنت الآن بالقاهرة, ربما تصاحبين رجلا جديدا .

قاطعتي قائلة: ما بعرف يمكن, ويمكن أصاحبك أنت وضحكت كثيرا, هو أنت بصراحة دمك كتير خفيف وأنا باحترمك وأنت بتنحب . لكن ما أظن إني بصاحب بسهولة, أنا باقعد فترة لأدرس شخصية الرجل, وما بصاحبه إلا بعد ما اقتنع فيه تماما .

أجبتها قائلا, إذا هذا الأمر يعتمد على مدة إقامتك بأرض الكنانة .

قاطعتني بالقول : مين كنانة هاي

فطست من الضحك, ثم قلت لها :

إنما هي مصر يا سيدتي .

عموما إلى اللقاء غدا صباحا : تصبحين على خير

وأنت من أهله

_ 6 _

انتقلت بنا الحافلة المكيفة من القاهرة باتجاه شرم الشيخ, فاجأتني بارتدائها "ترينج رياضي", قلت لها ما زال الوقت مبكرا على ممارسة الرياضة, ضحكت وقالت :

بعد أن غادرت بنصف ساعة نمت, وصحوت باكرا وأنا نشيطة جدا, وأنا منذ هذه اللحظة جاهزة للانطلاق في رحلتي السياحية بأم الدنيا .

بعد أن تحركت الحافلة بقليل, كانت تضع رأسها على كتفي وتغفو.

لم أشأ أن أوقظها, ولكني أيقنت بأنها ما زالت بحاجة إلى النوم, فهي قد أمضت عشر سنوات من عمرها مرتاحة البال, دون أن تقلق لأي سبب, ولأنها أيضا مواليد برج الثور, فإنها تمتاز بشيء من الخمول والكسل, وقلة الهمة وبطء الحركة .

حين وصلنا, كنا جائعين, فما أن تعرفنا على غرفتينا بالفندق, حتى ذهب كل منا إلى غرفته فوضع حقيبته, وغير ثيابه, ثم هبطنا إلى اللوبي لتناول طعام الغداء .

كما لو كانت عصفورة تناولت قطعة من الخبز مع قطعة من الجبن, وشربت عصيرا, ثم قالت شبعت .

كيف ذلك يا نشوى, لم تأكلي شيئا .

لا بجد أنا شبعت, خلص .

عرفت السر في أنها تشبه المانيكان, بقوامها الرشيق الذي يدفع من يراها إلى أن يخمن بأن عمرها أقل مما هو فعلا بعشر سنين .

قلت لها : أتعرفين بأن شكلك يوحي بأن عمرك اقل من ثلاثين سنة .

ارتسمت المفاجأة على وجها وقالت :

لا مو لهالدرجة

ثم استدركت ضاحكة : لا تنس إنه العشر سنين اللي عشتهم متزوجة مخصومين من عمري, يعني لا تحسبهم وبهيك بتكون الحسبة صح .

في المساء كانت تندمج مع الجروب السياحي, وتبدي الكثير من السعادة والارتياح, ومجرد أن بدأت السهرة حتى كانت تشرب البيرة المثلجة, وتجلس بجواري وهي تتأمل البحر, وما أن انتهت من شرب زجاجتها حتى كانت تقف وتسحبني إلى صالة الرقص .

مضى الوقت سريعا, وكنت أسرق الفواصل لأتحدث معها, عن أي شيء, لم تكن تهتم فعلا بأي أمر, ولا حتى تبدو أنها منشغلة بأي شيء, هي فقط تريد أن تكون مبسوطة في اللحظة, تشتاق قليلا لبناتها, لكنها لا تمر بلحظة تشعر فيها بأرق الشوق, وهي سرعان ما تتأقلم بالظرف الذي تجد نفسها فيه .

حاولت أن أقنعها بأن تشغل نفسها بمشروع ما, رفضت الفكرة تماما, هي لا تطمح لا بثروة ولا بشهرة ولا بأي شيء من هذا القبيل . بمشروع خيري, تساعد فيه الفقراء في بلدها, قالت هي خجولة وانطوائية, ولا يمكنها أن تطلب من أحد شيئا . أقفلت كل الأبواب التي يمكن أن تجعل منها شخصية اجتماعية . حاولت أن أدفعها للتفكير بالمستقبل, فقالت هل لا تفكر بالغد أبدا, وحين قلت لها بأنها ستعاني من الوحدة بعد عشر سنين حين يغادرها جمالها وحين يترهل جسدها ولا يعود يغري أحدا, حينها ستكون بحاجة إلى حب أو رفقة أو صداقة حقيقية, هزت كتفيها وقالت : بأنها لا تتخيل بأنها ستكون على قيد الحياة بعد عشر سنوات .

في الصباح, فوجئت بها ترتدي مايوه بكيني وتركض باتجاه البحر, وتغطس فيه كما لو كانت سمكة, أنا لا أتقن السباحة في البحر, لذا لم أشاركها في هذا الفاصل الصباحي, وبعد نحو ساعتين كانت تعرفني على الكابتن محمود, الذي يعمل كمدرب للغطس .

كان محمود شابا لم يتعد عمره الثلاثين, أسمر وطويل القامة, رشيقها, مفتول العضلات, بلا شوارب بالطبع, أدركت تماما بأنه يناسب ذوقها الذي اعرفه جيدا في الرجال, وتوقعت أمرا, لم يطل بي الوقت حتى أدركت انه قد تحقق .

على الغداء كان محمود ثالثنا, ثم وبعد القيلولة, كانت هناك جولة جماعية في المدينة, رافقنا أيضا محمود, وكان دليلا سياحيا بالنسبة لي, أما بالنسبة لها فكان شيئا آخر, وحين عدنا تناولنا ثلاثتنا العشاء, ثم ذهب كل واحد لغرفته ليغير ثيابه, حتى نشارك في السهرة, فلاحظت أن محمود كان ملازما لها أيضا, ورغم أننا كنا نشرب على طاولة واحدة معا, إلا أنها في الرقص قد سحبته من يده وظلا يرقصان حتى منتصف الليل .

في اليوم التالي بدأت أشعر كما لو أني في الرحلة وحدي, ورغم أنه لم يتبق على انتهائها سوى يومين, إلا أني تعللت بأني تلقيت اتصالا من القاهرة يتطلب مني العودة, لأمر ضروري جدا, وهكذا, تحولت علاقتي مع نشوى, مجددا إلى علاقة افتراضية, لكنها انتقلت من التشات عبر فيسبوك وايمو وواتس أب إلى الاتصال والتواصل عبر الموبايل بالمكالمات والرسائل .

بقيت هناك في شرم الشيخ أسبوعا آخر, مع محمود على ما اعتقد, ثم فوجئت بها تخبرني بأنها قررت الإقامة في مصر, ولكن في الإسكندرية .

ضحكت من أعماق قلبي وقلت لها :

التقيت صاحبا جديدا

ردت على الفور : تعرف انه لذيذ كتير

قلت : طبعا أعجبك من أول غطسة, هاهاها .

أجابت : صحيح, بس لحد هلا, ما فتحت له الأبواب لحتى اعرفه منيح .

أيام قليلة وكانت تعشق من مصر الإسكندرية , ثم تقرر على عكس عادتها وبسرعة أن تشتري شقة في المدينة الساحلية, ضحكت وقلت لها, كم من العشاق ستستقبل هذه الشقة يا نشوى, هل سيحدث معك هنا في هذه الشقة ما حدث معك هناك في شقة الإرسال, ضحكت وقالت : يا ريت, عموما أنا ما بخطط لشي , بعيش حياتي يوم بيوم, وما بفكر بشي, غير إني لما أحب اعمل شغلة بأعملها ولما أحب رجل بصاحبه وهاي كل القصة .

لم يمض أكثر من شهر, وكانت نشوى تتصل بي وتطلب مني أن احضر إليها على وجه السرعة, ظننت أنه قد حدث معها أمر جلل, أو أن فاصلا من الجنون قد حل بها, حين وصلت إليها قالت لي : بدي ودعك وبدي ما تؤاخذني على أي إزعاج سببته لك, تفاجأت إني حامل, وما بدي ارتبط بصاحبي, عشان هيك حجزت ومسافرة وراح ظل بكندا لحتى أولد, وأكيد لأربي المولود شو ما كان بنت أو صبي, شكله إنه قدري اقضي بقية عمري هناك, بس يا رب أعيش لحتى ابني أو بنتي يكبر ويقدر يعتمد على حاله, لأنه ما راح يكون له حدا, لا أب ولا أخ ولا أخت ولا أهل ولا قرايب ولا أي حدا غيري .

انتهى النص